جائزة أفضل رواية في معرض القاهرة الدولي للكتاب ٢٠٢٥

محسن يونس

جزيرة هرموش

رواية

- **عنوان الكتاب:** جَزِيرَة هَرْمُوش (فانتازيا يُحكَى أنَّ)
- **تصنيف الكتاب:** رواية
- **اسم المؤلف:** محسن يونس
- **رقم الإيداع:** 2024/31030
- **الترقيم الدولي:** 978-977-9677-58-3
- **الطبعة الأولى:** 2024
- **الناشر:** مؤسسة غايا للإبداع

- **01066749525 - 01094075948**
- **publishing@ghayaeg.com**
- **https://ghayaeg.com/**
- **https://www.facebook.com/ghayaeg/**
- **https://www.instagram.com/ghayaeg/**
- **https://www.youtube.com/@Ghaya-7**

جميع الحقوق محفوظة للناشر: لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي مسبق من الناشر.

إنها تكمن في عقلنة الصدف، وتحقيق الطمأنينة، ومنح كل الهباء منظرًا منطقيًا...

(باسكال بروكنر)

مهداة لكل من (يمنة.. ابنتي)

(نديم.. ابني)

ولـ (فاتن زوجتي)

ملاحظة مهمة: (لا شيء حقيقي في هذه الأوراق، إنما هي فانتازيا رجل أعرفه يستهلك اللغة، كاستهلاكه للسلع، وأي إسقاط منها على الواقع هو إسقاط صاحبه، ومع ذلك فالمصادفات لا يمكن محوها، أو توجيهها، وكل قارئ حر فيما يذهب إليه).

01

الفصل الأول

[1] يُحكَى أنّ:

إذا أصابت الدهشة شخصًا قيّدت ذهنه وألجمته، هرموش قال هذا لأنه مَرّ بالحالة، وزاد في الشرح، فقال: هذا الشخص المدهوش لا يستطيع اتخاذ قرار، اطمئن.. بعد فقدان الدهشة لطاقتها، متحولة إلى ذكرى باردة، يبدأ ذهن الشخص في التحاور، هكذا كان الأمر معه، ومع زميل له في مقام الصديق، يعملان معًا في مكتب مصلحة الشهر العقاري، يقال إن هذه العملية في كل تحولاتها أخذت منهما سنة كاملة من التردد بين الإقدام والإحجام، حتى تجاوز الاثنان كل الموانع، من أخلاقية وقانونية، وأي مانع يمكن أن يظهر فجأة أثناء المجاهدة، اتفق الصديقان على اغتنام يوم شم النسيم لتحقيق ما استقر عزمهما على فعله، إلا أن أحدهما غامر بإشراك شخص ثالث دون علم الأول، يبدو أنه أعطى لنفسه الحق في ذلك؛ لأنه أحد الاثنين مكتشفي الكنز.

في العام الماضي، وفي مناسبة شم النسيم، يحلو للبعض -والزميلان الصديقان من هؤلاء- ركوب أحد القوارب، وصعود إحدى الجزر لقضاء اليوم فوقها في اللعب والمرح، واستنشاق هواء نقي؛ بعيدًا عن المدينة التي في العادة يلفها جو شديد الحرارة، مع رياح خماسينية مثيرة للأتربة، مسببة لحساسية الأنف وضيق الصدر، إلى قرب مغيب الشمس والعودة، فتكون هذه الظواهر الطقسية قد خمدت حدتها.

في نفس يوم شم النسيم من العام الماضي، اكتشف واحد منهما قطعة أرض رملية على يابسة الجزيرة، وقف على حدودها يقلب

بمقدم مشط قدمه في رملها، بعيدًا عن بعض الأشخاص الذين اصطحبهم لهذه الرحلة. الحقيقة أنه لم يرتح إليهم، ووجد أن مرحهم ثقيل الدم، شعر أنه غريب فانفصل عن تجمعهم، منتظرًا سقوط قرص الشمس في الغرب، للعودة إلى المرسى، ومنه إلى سكنه.

يُحكَى أنَّ:

صرخة كادت تخرج من فم هذا الشخص الذي يدعى «سلامة هرموش»؛ لأنه حين شعر بأن شيئًا نام على مشط رجله من أعلى وشعر بثقله، وقبل أن يلتفت نحوه، خاف أن يكون شيئًا مؤذيًا، وجد أن مشطه حمل قطعة في حجم بيضة دجاجة، تلمع لمعة لا تخطئها عين، همس لنفسه: «أتكون محلما أظن؟!».

يُحكَى أنَّ:

في رفعه لرأسه نظر إلى من كان معهم، فرأى زميله وصديقه في نفس مكتب مصلحة الشهر العقاري، ودون روية منه لوّح له يستدعيه، فلما جاء قرفص بجانبه على حافة أرض الرمال، قال له: «خليل حواس، أنت صديق عمر، قل لي ما هذه؟».

أمسكها وقلّبها على راحته، بعدها عض عليها بأسنانه القواطع أولًا، ثم أدخلها تحت أضراسه، أخرجها عالقًا بها بعض لعابه، وهو يتأملها في دهشة: «ذهب يا هرموش.. هذه ذهب!!».

يُحكَى أنّهما ظلّا يتبادلان استعمال مشط القدم في تقليب الرمل، وفي كل مرة يحصل كل منهما على قطعة من الذهب: «هرموش هَذِهِ أرضٌ كَأنَّ كَنْزًا مِنَ الذَّهَب يختلط بِرَملها!!».

«حواس، علينا الاكتفاء حتى لا يرانا هؤلاء الذين جئنا معهم.. أنا ضائق منهم.. سنتحدث فيما بعد».

وضع كل منهما القطع الذهبية التي حصل عليها في جيبه، واستدارا عائدين، سقطا في نوبة صمت طوال رحلة العودة!!

[2] يُحكَى أنّ:

سنة كاملة لم ينقطع حديثهما عن تلك الجزيرة، وقطعة أرض الرمال، وكيف يصلان إليها، والتنقيب بها، وحمل ما بها من ثروة دون أن ينتبه إلى فعلهما أحد من الناس أو أحد من الحكومة خاصة؛ لأن التنقيب يحتاج إلى ترخيص، والترخيص لا يُعطَى إلا لجهة أو شركة معتمدة أو حتى فرد، يكون المستخرج من باطن الأرض موزعًا بنسب بين من يقوم بالتنقيب وبين الدولة، والأغلب أن نسبتها ربما تصل في بعض الأحيان إلى ضعف نسبة المنقب، وهما ليسا منقبَين محترفَين، وليس لهما رغبة في الإعلان عن أنهما سينقبان عن أي معدن يوجد تحت الأرض أو يوجد على سطحها. سيعودان في نفس يوم شم النسيم من العام المقبل، بسرية ودون ضجة، ليظلا اليوم كله في التنقيب، وجمع الحصيلة، والعودة عند مغيب الشمس، واقتسامهما النصف في مقابل النصف.

مر شهر، ومر شهر ثانٍ، تحدث بعده خليل حواس إلى سلامة هرموش، وقال له إنه لا صبر لديه، واقترح أن يشتريا قاربًا صغيرًا، يمكن استخدام المجاديف أو تركيب أحد المواتير المحمولة له، إذا وجدا أن التجديف يمكن أن يرهقهما، يذهبان بالقارب إلى الجزيرة ليلًا، ويكون معهما كشافان قويان، للسهر لبعد الفجر، وقبل طلوع الشمس يعودان بما جمعا، يقتسمانه النصف لنصف كما اتفقا من قبل.

تمطى هرموش ثم تثاءب، ومد قدميه على آخرهما، ثم قال: «أتعجب والله من طبعك العجول يا حواس!!».

اتهم حواس «هرموش». بأنه يفكر ويتصرف كسلحفاة، وهذا لا

يوافقه. بعصبية رد عليه هرموش بأنه صاحب بصيرة عمياء، فشراء قارب سوف يجعل الناس تتساءل: لماذا موظف بمصلحة الشهر العقاري يشتري قاربًا، وهو لا صياد، ولا يستعمله في نقل الناس أو البضائع؟ هذه واحدة، أما الثانية فهي أنه يحبذ التفكير مثل سلحفاة، ففي التأني السلامة، تاريخ البشرية يقول بذلك.

كانا يجلسان على مقهى، أشار إلى فنجان القهوة، وقال له أن يستكمل شرب فنجانه، وليكن في علمه لو حاول أن يفعل شيئًا بمفرده يخص الموضوع -وسوف يراقبه- فليكن في علمه أنه لن يراعي صداقة ولا زمالة، وسوف يجد الشرطة فوق رأسه، سواء وهو ما زال على الجزيرة أو في بيته أو حتى وهو يسير في الشارع.

«أتُخَوِّنُنِي يا هَرْموش؟! لَم يكُنْ عَشَمِي أنْ تُهَدِّدَنِي يا صاحبي!!».

حدثت بينهما قطيعة مدة من الزمن قُدِّرت بشهرين، حتى زوجة هرموش تساءلت مرة عن حواس، ولِمَ لَمْ يعد يأتي إلى منزلهما؟ وهو أيضًا لم يعد يأتي على سيرته! غمغم بكلمات غير مبينة، وهب من استلقائه على السرير بحجة أن لديه موعدًا مع أصحابه، وكاد ينسى، ولا بد أن ينزل إليهم الآن. بعدها بيوم أو يومين، في لحظة ود بينهما، سألته عن زميله وصديقه، تضايق هرموش منها، وصاح في وجهها خروجًا من الحالة بأنها أخرجته من متعته، ثم ما هذا الإلحاح؟ هل حواس صديقها ولا يعرف؟ هل هو طرطور؟!

تراجعت الزوجة، فهي عرفت الآن وتأكدت أن هناك بين الرجلين حالة من الجفاء، وعليها ألا تثير زوجها، ملست على صدره، وقالت له إنها لا تقصد إلا معرفة سبب مخاصمتهما، وهذا حقها عليه كزوجة،

أما كلامه فعيب، وهي بسببه سوف تخرج الآن لتنام في حجرة الأولاد. اضطر هرموش أن يصالحها، ولكنها صممت أن تعرف السبب في القطيعة، لتظل في الحجرة.

[3] كلما وقعت عيناه على اللون الأصفر، سمع تساقط جنيهات ذهبية بنغمة يتذكرها حين كان طفلًا، ورأى في غفلة رجلًا من أقربائه غرف بغناه يحصي عددًا من الجنيهات الذهبية، مبالغًا في جعلها -وهو يسقطها بعنف فوق بعضها- تصدر رنينًا مضاعفًا. كان وجهه عندما يصك أذنيه الرنين تملؤه ابتسامة صامتة، بينما يُضيِّق عينيه، وكأنه يحمل الصوت في رحلة إلى داخله، تنتهي لتبدأ مع جنيه آخر، يكمل به رحلة متعة جديدة.

القريب الغني لم يمت، كيف لم يمت؟! تسلل إلى الطفل مختلطة خلاياه بخلاياه، هل تتحدث عن التناسخ مثلا؟! لا، ليست منطقتنا مؤمنة بالفكرة كمناطق أخرى على الخريطة. إذن ماذا تقصد؟! أقصد أن أقول: الإنسان عجيب، يمكن أن تدخله أمنية، لا، تدخله ما هي فوق الأمنية، فيعيش بهذا الفوق.. لا أفهمك.. تأمل وأنت تفهم، عمومًا انتظر التكملة:

ظل فقيرًا طوال عمره، إلا أنه ظل أيضًا طوال عمره هذا يفك عقدة منديل من القماش على جنيهين ذهبيين، كان اختلسهما خفية من قريبه الغني، يقسم الوقت بالعدل بين تأمل لونهما الأصفر ساعة، فلما يرفع رأسه يجد ما يحيط به هو اللون الأصفر حتى الأفق البعيد، ساعة أخرى حتى تعود كل الألوان إلى المشهد، فيصر المنديل على الجنيهين الذهبيين.. هكذا؟!

هكذا مع الأيام يفعل نفس الفعل الذي رآه صغيرًا، يداوم عليه لمدة ثمانين عامًا إلا شهور، قبل أن يذهب إلى عظام قريبه في حفرة الراحة الأبدية، حين تم له الذهاب، استطاع أن يأخذ من الجنيهات

الذهبية ما لا عين رأت، ولا حِجر اتسع. ما كان يضايقه حقيقة أن الجنيهات الذهبية لا صوت رنين لها في هذا المكان، يصرخ صرخات مكتومة، ملولًا مغيظًا عاتبًا على أذنيه خيانته في عدم استكمال متعته، وسماع الرنين!!

أخفتني يا هرموش، وقد فهمتك..

لكن أود أن أسألك من أين جئت بهذه الحكمة؟!

لا حكمة ولا شيء حواس.. إنني أشطح في بعض الأوقات، لكن لا تُعرّض ما اتفقنا عليه للخطر.

[4] يُحكَى أنَّ:

عقب انتهاء الجفوة، ومجيء خليل حواس لمنزل سلامة هرموش، واعترافه أنه متعجل، فرأس المال موجود على الجزيرة، وأنه شعر بحجم الثروة التي سوف يكون عليها، بعد أن باع القطع التي حصل عليها يوم أن استدعاه، ونكتا الرمل بأمشاط رجليهما تحدث سونة للعقل عند الوقوف على عتبة ثروة، كما تحدث نفس الهزة عند ضياعها، كما تحدث لحظة اكتمال لذتك وأنت تفرغ فيضك. ضحك هرموش، وضربه في صدره صائحًا: «من أين تأتي بهذه الأوصاف يا صاحبي؟! أنت عجيب!!».

فكرا معًا في هل يمكن بالفعل شراء قارب صغير قبل يوم شم النسيم بمدة، والإبحار به إلى الجزيرة والعودة، ثم تركه هكذا بليل دون أن يعرف أحد بملكيتهما له؟

رأى هرموش أن هذا الفعل بعينه هو ما يوقعهما فيما يخافان منه، وهو أن أحد الناس يراهما مع القارب، فيثير فضوله، أكبر المصائب تأتي عقب الفضول. سأحكي لك أولًا، ثم أعلمك بما فكرت فيه، إليك هذه الحكاية، لم أعد أتذكر هل سمعتها من أبي؟ ربما من جدي بالبلد، أم قرأتها، المهم اسمع، سأتلوها عليك كما هي مخزنة في ذاكرتي، فلا تهتم بالضمائر؛ سواء كانت للمخاطب أو للمتكلم أو للغائب، فالفكرة هي الأهم:

أزلنا الأسوار المحيطة بكل بيتٍ، تخطينا بهذا مألوفًا كان متبعًا عند إنشاء أبنيتنا، صار عرفًا منذ عشرات السنين، وكسرناه!!

بعد الإزالة رأينا البيوتَ كأننا نراها أول مرةٍ، تيقنَّا أن كل بيت يليق

بأصحابه فعلًا، كانت أنفاسهم التي أدخلوها أو أخرجوها بين جدرانه طبعث شكل البيت بطبعتهم: «كم من مسرات.. كم من نوائب مرت بها؟!».

«من تقصد؟! الناس أم البيوت؟».

«الاثنان معًا... لا بد أن يكونا معًا».

بدأت طباعنا في التحول، أخذنا نبتسم في وجه بعضنا البعض إذا التقينا، نسلم ونحتضن، ونتبادل الحديث عن الصحة والأحوال، ونطمئن على سير الأولاد في المدارس، نهنئ من يقيم عرسًا، ونعده بحضورنا، مع حمل هدية معتبرة للعروسين، نزفهما راقصين مصفقين مغنين إلى الفجر، كنا بلا غائب واحد في أي عزاء، ربما بادلنا أصحابه البكاء بينما نترحم، ونطلب الغفران لنا ولمن ذهب، نمسح دموعنا ونتمخط، كان الكثيرون يقعون في اللخبطة فلا يعرفون أهل المتوفي وسط ضجيج العديد.

تبادلنا القول في مرة: «كنا نفعل ما نفعل.. لم نتغير.. لكن الحقيقة كنا نفعله بشكل وكمية أقل».

«يا رجل، يبدو أننا نخاف من بعضنا البعض بعد أن صرنا مكشوفين!!».

صاح رجل آخر: «ما نفعله الآن غير طبيعي».

«يا رجل، ابصقها من فمك».

ارتفعت فجأة بعد صمت طويل صيحات ضائقة غاضبة: «اللعنة على من أشار.. اللعنة على من نفّذ.. لم نعد نتعرف على أنفسنا».

هل قابلنا ذلك بوجوه تائهة، غارقة في حيرة؟! خاصة وأن هناك صوتًا تبع ما سبق بنبرة مؤكدة: «الإنسان يكتمل بالأسرار.. من قال إنها شيء سيئ؟!».

«يا هرموش، ثبت وأنبت، قلت لك».

«إليك ما سنفعله، سنؤجر قاربًا من ذلك المرسى، يذهب بنا إلى الجزيرة، ينتظرنا صاحبه فيه إلى موعد العودة، يرجع بنا إلى المرسى، نحمل أحمالنا إلى منازلنا».

«فهمت قصدك».

«لم تفهم لأنك متعجل سوف تكون زوجتي معنا، لتبدو رحلتنا طبيعية».

وجد حواس ثغرة، ولذلك صمم على بيانها حتى يزيل جزءًا من اتهام هرموش له بالتعجل وعدم الفهم نتيجة لهذا التعجل، قال إنهما بالطبع سيحملان معهما أكياسًا من البلاستيك يملآنها بالمعدن، هز صاحبه رأسه، وأشار بيده ليكمل، قال: هذا سيجعل الرجل صاحب القارب يتساءل. قبل أن يسترسل صاح هرموش: «سنُشرك صاحب القارب معنا».

[5] يُحكَى أنّ:

خليل حواس أعمى في لحظة غلبه الطبع، فسار به نحو المرسى، رأى عدة قوارب، تأملها على اعتبار أنه سوف ينتقي واحدًا منها، مع كل ما حدث بينه وبين صاحبه من قطيعة ثم تصالح، وتلقي عدة حكايات للعظة والتعقل وعدم التعجل، ما معنى العظة، وما معنى التعقل؟! ثروة موجودة في رمل، وما عليك إلا أخذها دون تعب أو استعمال أجهزة أو أدوات، ما الحكمة في عدم اغتنام الفرصة والوقت؟ أي بطء وأي سلحفاة يا سي هرموش؟! ألا سحقًا لكل بطء وكل سلحفاة، ثم متى يأخذ الإنسان سيد المخلوقات حكمته من زاحف يغيظك بثقل حركته؟! كل المشتقات توقف قلبك: استبطأ، يستبطئ، استِبطاء، فهو مُستبطِئ، زاحف -حفظك الله- لو قلبته على ظهره لا يملك القدرة على الاعتدال، ويكون وضعه على ظهره هو دماره!!

كيف جاء هرموش في مثل هذه الساعة؟ وفي هذا المكان من المرسى؟!

إنه يراقبني بالفعل، هذا بالله تسلط ذميم، تحكّمَ وتمكّنَ وسَيْطَرَ، يا أخي لا.. هل الجزيرة جزيرة هرموش؟! يمتلكها وأنا لا أعلم؟!

يا أيها الأبله، لو استأجرت قاربًا من هذا المرسى، وقلت لصاحبه أن يأخذك لهذه الجزيرة هناك في غير موسم شم النسيم، فسوف تثير فضوله وقبله ارتيابه، لماذا؟ ما الذي لك فوق يابستها، وهي المهجورة؟!

هل تقول له إنك في شم النسيم القريب أوقعت زوجتك عقدها،

وهو من الذهب مضافة إليه جوهرة من الماس؟ ستتسع مساحة الشك لديه، وسيقول لك في ارتياب: أي عقد هذا الذي ترتديه امرأة في يوم فسحة، وهي تصعد إلى يابسة جزيرة، لقضاء يوم بعيد عن عواصف الخماسين وأتربتها وخنقة البيوت؟!

أنت بفعلك المتعجل ستعرض مهمتنا لخطر كشفها، ومن الأفضل إلغاؤها، منعًا لوضعنا في سين وجيم بتهمة إخفاء معلومات مهمة، وخذ عندك فضيحتنا في الصحف بصفحة الحوادث، وربما هي القاضية، أقول ربما تسبب هذا في طردنا من وظيفتنا، وحرماننا من معاشنا، لست أنت الملوم، أنا الملوم لأني أطلعتك على سر كان ينبغي عليّ الحفاظ عليه، وعدم مشاركته مع واحد غير رزين هوائي متلوف جالب للمتاعب.

يُحكَى أنَّ:

النفس أمارة بالسوء يا سي هرموش، هذا قول الناس، أقول لك وأنت الحكيم صاحب الحكم، إنها ليست أمارة بالسوء وحده؛ بل والحسن لو دققت وتمحصت، كيف أرى سعدي على بعد مسافة يمكن قطعها بقارب، وأقعد عن اغتنام الفرصة؟ ما الذي يجعلك تطمئن إلى أن لا أحد يمكنه اكتشاف ما اكتشفناه، ويكون ذا همة، فيستولي على أرض الرمال؟ وترجع أنت وأنا بلا لقية، لا في باطن الأرض ولا على سطحها؟!

لم يتكلم هرموش، ابتلع ريقه عدة مرات، وتنحنح عدة مرات ليستطيع تسليك حنجرته من بلغم لبد في حجرتها، سحب حواس من يده، من شارع إلى شارع حتى وجد مقهى، فجلس وأشار

لصاحبه بالجلوس، قال هرموش وهو ينظر لوجه صاحبه: سأقول لك أمثولة، لو فهمت مغزاها، ربما تستمع لي، وتصبر إلى يوم شم النسيم الآتي، أزيدك معرفة بأن أرض الرمال صعب اكتشافها، هي ليست بعيدة عن الاكتشاف، ولكن ألم تشاهد بعينيك أن غربها أرض أحراش يغطيها ماء آسن، ثم ارتفاعها عن الأرض المحيطة بها لا يغري بالصعود إليها، كما أنها بعيدة عن استخدام الصاعدين إلى الجزيرة، هم يمارسون أنشطتهم في تلك الأرض المستوية الخالية من النباتات، يحولونها إلى ملعب للكرة، ويفرشون على حافتها تحت بعض شجرة ليتناولوا طعامهم، وفرد أجسادهم للراحة، أرض الرمال كما سمّيتها هي لنا، وإليك فاسمع: كانت تغني مقلدة لكل المغنين والمغنيات.. من هي؟! واحدة من الستات، اسمع ولا تقاطع، كانت ترفع صوتها وتنال الإعجاب، خاصة وهي تصدح بكلمات لأهل الصنعة غير مشهورة، فكأنها قلبت تربة وحفرت وعثرت على لُقيَة، كوصفك أنت لما عثرنا عليه تحت الرمال، الست قدمت هذه التحف الغنائية للمعجبين فازدادوا تعلقًا بها، سارت الحال بها تقلد تقليدًا يلمع كالأصل، أريد أن تعي أنها مقلدة تحترف التقليد: «يا ربى!! إنها تتقن ما تفعل!!».

هكذا يقال.

«وماذا يعني؟! إنها مقلدة».

«يا لك من متعسف... لماذا تدندن خلفها وهي تغني؟!».

«لأن الأصل لحظة سماعي لها يخايلني».

طبعًا الست لم تسمع هذا الحوار، وكيف تسمع، وأنا وأنت نحكي

عنها كأمثولة أو حكاية لعلك تستفيد منها؟!

إذن الست توجد حيث توجد، وهي هكذا في مأمن من إحباط يصيبها، فاستمرت إلى أن جاء يوم عثرت فيه على صوتها، غنت وأطالت، أغمضت عينيها راحت وجاءت على هتاف يطالبها بالصمت!!

«لماذا؟».

«ألم أقل لك؟! صوتها الحقيقي لا يُطرب».

كانت حانقة غير مصدقة لما حدث، لعنت أولًا تشوه الأذواق، وتدني التحولات في السماع، كعادة من يرى نفسه على حق والآخرين أجمعين على خطأ، الست المفترية أقسمت في تلك اللحظة أنها لن تقلد بعد اليوم حتى لو انهالت عليها أموال قارون، فهي عرفت الطريق، ولا توجد قوة في العالم تستطيع إبعادها عن السير فيه، سوف تغني الحمقاء لنفسها!! خليل حواس، هل أنت أحمق؟

«لا.. لست بأحمق، ولن أغني وحدي لنفسي.. حاضر.. سأدفع أنا ثمن المشروبات».

[6] يُحكَى أنّ:

يوم شم النسيم جاء أخيرًا، خرج «سلامة هرموش» الموظف بأحد مكاتب مصلحة الشهر العقاري من بيته مصطحبًا زوجته، ناويًا استئجار قارب ينقله إلى إحدى الجزر بالبحر غير آهلة بالسكان، تستقبل الناس في مثل هذه المناسبة، حيث يقضون يومهم إلى قبل مغيب الشمس بقليل، يلعبون ويسمرون ويشمون الهواء النقي بعيدًا عن خنقة البيوت في مثل هذا اليوم الحار والممتلئ بالرياح المثيرة للأتربة والغبار، سوف يقابل زميله وصديقه الموظف بنفس المكتب «خليل حواس»، الذي رآه على المقهى ليلة أمس، ووجده يطير يجلس ويقوم يلف المقهى، يغني جملتين يشبكهما مع جملة أو جملتين لمغنٍّ آخر أو مغنية، وفي نفس الوقت يساعد في حمل الصواني وعليها الأكواب الفارغة، حتى أن القهوجي في إحدى المرات اصطدم به، وكادت الصواني بما تحمل من أكواب تسقط. طلب منه القهوجي أن يجلس ويدعه يعمل وحده فهو لا يريد معاونة من أحد، صاح مؤكدًا أن معاونته تعطله ولا تيسر له.

نادى عليه هرموش، وهو مقطب الجبين يبدو غاضبًا، فلما جاء نحوه وقبل أن يجلس قال من بين أسنانه المطبقة على غيظ: «ما لك يا خفيف؟ ستفضحنا!!».

حواس وهو يجلس واصل الغناء: «يوم السعد هل، بعد طول غياب، يا هناي يا هناي يا هنااااي».

جاء الوقت ليكون رأسه في مقام رأسه، بسبس لصاحبه هرموش، فوجده ينظر إليه في دهشة ورفض لما يفعل، قال: «إيييييه يا

حنبلي، ألا أجد عندك حكاية أو أمثولة كالعادة؟ أسمعني.. أطربني يا أبا الحكم».

واضحة في لهجته السخرية، البني آدم جبار، ومع ذلك شكّاء بكّاء نافذ الصبر ملحاح، استطاع أن يترجم النظرة، فاتسعت مساحة السخرية، وقال له إن الخلف والخلاف طبيعة في الدنيا وفي الإنسان، انظر لنفسك تصدر الحكمة للناس، أو ما تتصوره حكمة، وأنت في العمى نائم، أليس ما دبرته ضد الحكمة والأصول والقانون يا هرموش؟

هرموش خاف أن مسكته للأمور تفلت، وفكر بسرعة ليخرج بزميله من حالته التي يمكن أن تهدم كل شيء، سيفضح الأبله السر، وستكون الجزيرة وأرض الرمال هنا تحت أقدام زبائن المقهى، وتضيع التدابير التي ظل من شم النسيم إلى شم النسيم صابرًا على نضجها على نار هادئة، ربما كان حواس على حق، وأن ما فعله حمق حنبلي، والغنائم تحب السرعة والتنفيذ بلا تلكؤ، يعود إلى طبيعته المتأصلة داخله، التنفيذ الذي تسبقه أيام وليالٍ من الرغبة والتفكير، والرغبة والتفكير، عند التنفيذ تكون المهمة سهلة ويسيرة، تكاد تكون بلا أخطاء، زائد يا سيدي ما سوف نحصل عليه موجود، وسنحصل عليه اليوم أو غدًا، قل إن شاء الله.

هات يا أخي حكايتك، أليس لديك؟! غير معقول، أين طبعك؟!

طيب خذ هذه، أنت الذي طلب فلا تلمني إذا كنت غوطتُ في الغرض.. خذها يا صاحبي طازجة من بنات أفكاري لأذنيك رأسًا: ظل رجل داخل منامه، لم يغادره، متشبثًا بفضائه وصوره المتتابعة، كان

يسمع أصواتًا من خارج منامه تناديه أن يستيقظ، وهو داخل المنام يعي أنه لو استيقظ فسوف يفر منامه، ولن يعود إليه أبدًا، لذا همهم ورفس برجليه، وظل في منامه، اقترب منه صوت كأنه قرب أذنه: ما الذي يجعلك متمسكًا بوجودك داخل منام؟!

لم يؤثر فيه هذا الحديث؛ إذ إنه لحظتها كان يطير طيرًا رائقًا طيبًا بلا رهق، خلافًا لطبيعته الأرضية، ظل هكذا على حالته إلى أن مات، كان من الطبيعي والحتمي أن تغادر روحه متحررة من سجن جسده، مسرعة إلى عالم آخر، لم يحدث هذا، كانت المنامات التي تكدست منذ زمن فوق بعضها كطبقات رسوبية، تعمل كأن هناك بكرة شريط من «بوزتيف» لفيلم، ظلت تدور على محورها، تبث مرئيات لا تنتهى، سجنت الروح في ملل وسأم طويل، كان قدرها لأنها كانت الروح لشخص ضمرت بؤبؤات عينيه عن رؤية تضاريس العالم حوله، كان عقابًا صارمًا لأنها لم تكن إيجابية التفكير لتهرب أثناء حياة صاحبها، لو فعلت لكانت تحررت قبل أن ينتهي وجوده، هي تعرف أنها لم تكن تستطيع، وكل الكتب والموسوعات والمعاجم والناس تعرف كذلك أنها لم تكن تستطيع، كانت تعاني من سعال جعل صيحاتها متقطعة: ورطتي وجودي، وجودي ورطتي، إياكم أن يكتب أحد مرثية، أو يرفع أحد صوته بعدُودة.

«هل أنا المقصود يا هرموش؟».

«يا صاحبي، أنا أضرب أمثلة قد تجد نفسك فيها أو لا تجد، المهم هو أنني أرضيث ذاتي، هل يرضيك أن أقوم وأرقع أصداغك وأقطع لسانك، أم تسمع كلامًا بلا أذية؟».

باخت الجلسة، وفز كل منهما ليذهب إلى بيته، فرقع حواس بإصبعيه في الهواء منبهًا صاحبه لشيء تذكره توًا: «هرموش، قبل أن أنسى، سيحضر معنا حسن خريزة، أنت تعرفه».

صاح هرموش بغيظ: «قلت اصطحب زوجتك حتى نظهر كأننا عوائل في يوم فسحة».

قال حواس إن زوجته تستغل اليوم وهو إجازة في السفر إلى أهلها، ولا أستطيع منعها من مواصلة أسرتها.

[7] يُحكَى أنَّ:

هرموش وافق أخيرًا على مضض، على اعتبار أن خريزة زميل لهم، وأنه سوف يكون مُعينًا جيدًا. قال: لا بأس، فهو حين يرى الرمل يُخرج ذهبه سيكون قد صار منّا، نبّه عليه: هات معك بعض الفاكهة والتسالي، وحزمتين من الخس، ولا تنسَ أن تشذبهما، ثم تغسلهما جيدًا بماء الصنبور الجاري، أما هو فسوف يتكفل بتوفير السمك الفسيخ، والبصل الأخضر والأرغفة، والذي منه، قال حواس إنه في الغد في تمام الساعة التاسعة صباحًا سينتظره أمام العمارة التي يسكن في إحدى شققها، والمسافة بين المسكنين يلزم لقطعها عبور شارعين، هز هذا رأسه علامة الموافقة، وبادله ذاك هز الرأس أيضًا علامة على الموافقة.

يُحكَى أنَّ:

في صباح اليوم التالي، أي يوم شم النسيم نفسه، كانت بالفعل الرياح ساخنة تُلهب الوجنتين بحرارتها، والتنفس ثقيل، مما جعل هرموش يسرع في خطواته، دائمًا يسبق زوجته، ويضطر للتوقف والنظر للخلف، والصياح عليها بأن تستبدل بسير السلحفاة سير الغزالة، فترد الزوجة عليه مبتسمة بأن البحر موجود والجزيرة موجودة، ولن يهربا، وأن عليه التمهل، فيستدير مواصلًا بخطوة معتدلة، بعد أن يقطع عدة أمتار تعود خطواته إلى سابق عهدها مسرعة، وهكذا، رغم أنه ينوء بحمل عدة أكياس بلاستيكية من النوع الكبير، وُضعت فيها كل مؤونة الرحلة من أسماك البوري المملحة، والبصل الأخضر، والليمون، وبرطمان طحينة بيضاء.

معه أيضًا كيس ضخم اضطر أن يحمله على ظهره، به ما يقرب من السبعين رغيفًا، اشتراها من الفرن القريب من بيته ليلة أمس، كما حمل إلى جانب هذا جركن ماء عذب يكفي قبيلة، بيده التي شعر أنها ستنخلع من عند الكتف، وهذا سبب توقفه كل مرة ووضعه على الأرض ليرتاح ذراعه، وبالمرة يصيح على زوجته!!

يقال إن زوجته حملت الحمل الخفيف، كيسًا ملفوفًا بداخله باكو شاي زنة ربع الكيلو من ماركة مشهورة، وبرطمانًا به زنة كيلوجرام من حبيبات السكر، وكيسًا به نصف الكيلو من حبات الليمون، وملعقة صغيرة وسكين، وبرادًا لإعداد الشاي، وعدة أكواب ورقية اشتراها أمس قبل شراء الأرغفة، يقال إن زوجته هي التي حكمت عليه بشرائها، لرفضها أخذ أكواب البيت الزجاجية خوفًا من الكسر أو الضياع.

قبل النوم، اطمأن على كل التجهيزات في أكياسها، وكان سوف ينسى شيئًا اعتبره مهمًا جدًا، وهي صابونة لها رائحة زهر الليمون يحبها، ويفضلها على أي صابونة لها رائحة أخرى، فضمها إلى الحاجيات المزمع حملها صباحًا، وهو ينبه زوجته إلى ما كان غائبًا عن ذاكرتهما!!

يُحكَى أنَّ:

هرموش عندما وصل إلى المكان المتفق عليه للقاء، اغتم وفكّر أن يلغي الرحلة؛ لأنه وجد زميله وصديقه حواس ينتظره ومعه ثلاثة! صحيح أنه يعرف منهم اثنين من موظفي المصلحة، لكنه فكّر بسرعة في أن قرار الإلغاء هو الحمق نفسه، فسوف يذهب حواس ومن

جاء بهم إلى الكنز في أرض الرمال، ولا ينوبه إلا الخيبة، استعصم بالهدوء، وأن ليس مشكلة في وجودهم كمجموعة تظهر أمام أي تجمعات تصعد هذا اليوم إلى يابسة الجزيرة، يمكن جعل بعضهم ساترًا ومراقبًا، بينما البقية يحصدون الذهب.

تنحنح عاليًا، وجد زميله وصديقه ينظر إليه، فلما وجد وجهه متغيرًا حطت عليه تقطيبة نكدة، اقترب منه هامسًا، وهو يمسكه من عضده: «الزيادة عزوة وحماية.. أرح وجهك».

مشى به عدة خطوات بعيدًا عنهم، وقال لحواس: «لا مانع يا أبله، ألم تحضر إلا هذا المسمى بهنس؟ إنه لن يرينا راحة؛ بل سيبلغ السلطات عنّا».

«كيف، وهو المطارد من الأمن؟ وجدت فيه كرهًا لهم أكيدًا، فضممته إلى الشلة».

التفت إليهم، فلم يرد بشيء قوي أعده، ولم يخرجه لاقترابهم، نظر إليهم، الغريب أن من كان موضوع الحديث هو من بادره بالتحية بصوته الأجش المرتفع، أما خريزة فلم يقل شيئًا، أسرع فقط يأخذ جركن الماء، وأشار لبهنس أن يحمل عنه كيسًا مما يحمل ليخفف العبء عنه، فأمسك بكيس الأرغفة المحمول على الظهر، وجعل ينزله ويسلمه له، وضعه كما كان يحمله على ظهره، هذه الحركة أغاظت سلامة هرموش، واعتبرها ليست تقليدًا له، ولكنها للسخرية منه، عمومًا اضطر أن يكتم انفجارًا كان كفيلًا باتهامه بأنه يسعى لإلغاء الرحلة، بضيق خلقه وتسرعه، في العادة كانت هذه التهمة تلاحقه، سواء في العمل أو في البيت، تخفف منها بعض الشيء تهمته

الأخرى، وهي حكايات الحكمة، التي وجد أخيرًا لها صفة، فقال عنها إنها شطحات، فمن أراد اعتبارها جدًا فليكن، ومن أراد اعتبارها هزلًا فليكن، وكل واحد حر فيما يذهب إليه.

[8] يُحكَى أنّ:

هرموش طابت نفسه؛ إذ لاحظ أن أفراد الشلة -كما وصفهم حواس- لم يرفع واحد منهم عينه لينظر إلى الزوجة، ولم يسلما عليها يدًا بيد، خاصة الأخير الذي يبدو منزويًا يضع وجهه في الأرض، ويبتعد عن البقية بخطوتين إلى الخلف، حتى أنه تعاطف معه، وقال في نفسه، مع ابتسامة غامضة: «هذا الخجول لم يعد يوجد مثله».

لم يسأل عنه لمعرفة اسمه، ومَن مِن الشلة صديقه، وهل يمكن الاطمئنان إليه؟ أجّل هذه الأسئلة، وارتكن إلى أن الماء يُكذِّب الغطاس، أي أن التجربة هي خير حكم عليه، وعمومًا إذا اشترك فهذا خير، وإذا عمل فيها شيخ طريقة ورفض أن يكون جامعًا ومشاركًا في الثروة، فهو الخاسر. عاد يتساءل: هل تحدث حواس معهم؟ إذا فعل فوجودهم يعني موافقتهم، طيب إذا لم يتحدث مفسرًا سبب رحلة الفسحة، فكيف يكون تقبُّل كل واحد منهم للمهمة؟

بدأت شكوكه تجاه بهنس تعود، حين كانوا يمرون بين عمائر فخمة لحي أقيم حديثًا يقع البحر في نهايته، أخبرهم وهو يشير نحو عدة فيلّات بُنيت في شارع واحد على هيئة معمارية واحدة، قال إن البحر منذ سنوات قليلة كانت مياهه تصل إلى تحت أقدامهم، واحد منهم صفّر، وبعده قال: «غير معقول يا بهنوس، أنت تهزر معنا.. هل تراجعت مياهه طبيعيًا إلى هذا الحد؟!».

يُحكَى أنّ بهنس ابتسم ساخرًا، وهو يبلغه أن العكس صحيح، ألا يقرأ الجرائد ويشاهد التليفزيون؟ ليعرف أن لدى العالم أزمة تدعى أزمة المناخ، فإن ذوبان جليد القطب الشمالي تسبب في ارتفاع

مستوى سطح البحر إلى ثمانية عشر مترًا، ويمثل ارتفاع مستوى سطح البحر هذا الناجم عن تغير المناخ تهديدًا كبيرًا أمام عالمنا اليوم، فسوف تغرق الأجزاء المنخفضة أو الواطئة من اليابسة القريبة من البحار، هنا في مكاننا هذا قام كبار المستثمرين أيام انفتاح «السداح مداح» بردم البحر، وإقامة هذه المباني التي ترونها، ويطلقون على بعضها «الكمبوند» لكل كمبوند حراسة خاصة به، مما يؤكد على وجود الأمن بشكل كبير في هذا الحي السكني، وضمان وجود أمن كامل وحماية. أثرياء هذا العصر يخافون؛ لأن ثراءهم مشكوك في أمره.

ضحك، وأكمل: أصبح البحر الذي نسير إليه بعيدًا، ما جاء بعد انفتاح «السداح مداح» أكد تحيزه تمامًا لمن وضع يده على الأرض، التي كانت فيما مضى بحرًا، فمهّد ورصف الشوارع والميادين على حسابه، ومد أنابيب المياه العذبة، وتوصيلات الكهرباء، وإنشاء شبكات الصرف الصحي، وما يتبعها من دعم بالمواسير في شبكة تحت الأرض، بهندسة عصرية، أو كما يقال البنية التحتية، جعلت المنطقة في النهاية على هذه الروعة كما تشاهدون. الحقيقة لا بد أن تقال، ولكن ما حدث يفسر سياسات رضخت لها البلاد، ليست لصالح ناسنا الطيبين... لم يكمل؛ لأن سلامة هرموش شخط فيه بقوة أنه يعرف تفكيره، فإذا أراد أن يكون معهم فعليه أن يمسك لسانه.

أنهى تنبيهه القاطع دون أن ينظر في وجهه، ثم أسرع يسبق الجميع، وزوجته تهرول خلفه، فعل ما فعل ربما لعدم ترك الفرصة لمواصلة بهنس الحديث معه غصبًا، فهو يعرفه يحب الجدل مثل عينيه، ولا يباريه في هذا لا هو ولا أحد من الشلة!!

عندما أبطأ خطواته ووجدهم حوله، انبرى يلقي بإحدى شطحاته، ولا أحد يعرف من المقصود بها، فهي سافرة القصد من جانب، وغامضة القصد أيضًا من جانب آخر، ولكنه حرص على أن تسبقهم الزوجة، وتبعد عنهم، فلا تصل إليها كلماته: راحت الحمير يومًا إلى تلك الجميزة الموجودة على رأس أكبر غيطان البلد، قال حمار أشهب طويل السيقان الأربع، عالي الظهر، يبدو عفيًا: «إياكم والنهيق حتى لا توقظوا بشر هذا البلد.. عليكم قتل عادة النهيق في الفاضي وفي الملآن».

هزت الحمير رؤوسها، فتلاطمت أشفارها، فعاد الأشهب يحث الآخرين: «بسرعة.. بسرعة علينا أن نجرب صعود الجميزة قبل أن تفلت منا».

همس حماران: «نريد أن نثبت للبشر قدرتنا على ما يرونه مستحيلًا، سيصبح المثل الذي يلوكونه صباحًا ومساء كبعرة لا معنى لها.. هيا.. هيا».

أبعدت حمارة بين ساقيها الخلفيتين، وأرخت ظهرها، جرت بقية الحمير تتشمم، وترفع رأسها عاليًا، قالبة لشفرها العلوي نحو مشمها، ساحبة للهواء المحمل بالرائحة نحو رئتيها. كان الحمار الأشهب يسابق، استعمل رفساته وعضاته ليصل إلى منبع السيل، ونجح في هذا، بدا بعد أن غزت الرائحة منابت مشاعره كمن حصل على وجبته من المزاج عالي الانسجام، فأطلقها عالية، رجت الفضاء، فتبعته الحمير كلها في النهيق، متخلصة من رغبة طال حبسها، جعلت الجميزة تسقط بعض ثمارها!!

قال غراب لبومة كانا بين أغصان الجميزة يراقبان ما يحدث: «أنت تدينين لي بفأر حقل مما تصطادين».

تذكّر شيئًا فصاح مستنكرًا: «أكنت متيقنة بالفعل من صعودهم الجميزة؟! يا أختي فشرا!».

الجميع احتار في التفسير، ولكنهم كانوا ينظرون دون تحرج نحو بهنس الذي صاح بغيظ: «ما لكم؟! أنسيتم أن الذي يقود هو الحمار الأشهب، وأنا لست بقائد».

انطلقت ضحكات الجميع، واضطر هرموش أن يصيح فيهم: «لماذا تأخذون الشطحة مأخذًا شخصيًا يا بقر؟!».

[9] يُحكَى أنّ:

عندما وصلوا إلى مرسى القوارب لم يجدوا واحدًا متوفرًا يحملهم إلى الجزيرة المطلوبة، يبدو أنهم تأخروا، وسبقهم من استأجروا كل القوارب الموجودة بالمرسى، للذهاب بمثلهم إلى الجزيرة، وغيرها من الجزر المنتشرة في تلك البقعة من البحر. تحرك خليل حواس في المكان ضائقًا ناعيًا حظهم، قائلا إنه السبب، لماذا لم يحدد أن يكون اللقاء في الثامنة، يا ليته خرس قبل أن يقول التاسعة.

اندهش هرموش من منطق زميله وصديقه، فالدنيا لم يصبها زلزال مدمر، أو قامت الساعة منهية رحلتهم قبل أن تبدأ، قال له: «أيُّها الهَوّال خَفِّف.. سوف نقوم برحلتنا».

يحكى أيضًا أن:

الشلة المكونة من الخمسة رجال، منهم واحد اصطحب زوجته، فأصبح مجموعهم ستة، استأجروا قاربًا كبيرًا يُستخدم في نقل البضائع في العادة، وقيل إن صاحب القارب وافق على نقلهم، وقضاء اليوم ينتظرهم ليعيدهم إلى نفس المرسى، ممنيًا نفسه بالحصول على بضعة جنيهات سوف يدفعها إليه حتمًا أفراد الشلة، خاصة أن اليوم مناسبة، وهو وقاربه لا يعملان.

يقال أيضًا إنهم بعد أن استقروا فوق القارب أشاروا بعيدًا نحو جزيرة بعينها، قدّروا المسافة إليها من المرسى الذي به القارب بربع الساعة، أو أقل ببضع دقائق، طلبوا من صاحب القارب الذهاب إليها، سألوه عن اسمه، فأجاب: «مخيمر.. اسمي مخيمر».

صاح سلامة هرموش: «هذه جزيرة عمري، كم من ذكريات جرت وخفرت فوق يابستها!».

«أيعني أنه يمكننا تسميتها جزيرة هرموش؟».

«لا يهمني أن تسمى باسمي... المهم الذكريات».

قال خليل حواس فجأة إنه سوف يشتري هذه الجزيرة، ثم أمسك عن الخوض في كيف يشتريها، واستمع إلى تهكمات بقية الشلة دون أن يرد، فهو يعرف أن أفراد الشلة لم تستوعب بعد ما هم مقبلون عليه من امتلاك كل منهم ثروة، ما عدا هرموش، كانت تهكماتهم تتمحور معظمها حول من أين سيأتي بمال شرائها، وهو حتة حرفوش موظف لا يملك إلا مرتبه الذي بالكاد يكفيه، هل ورث خالًا أو عمًا يعيش في أمريكا أو أستراليا، ولا يعرفون عنه شيئًا؟! كانوا سوف يواصلون مشاغبته، إلا أنهم التفتوا إلى صاحب القارب مخيمر، وهو يتساءل مظللًا عينيه براحة يده، وبعد أن تمعن في فسح البحر، وركز في المكان الذي حددوه، صاح بدهشة: «لم أرَ هذه الجزيرة من قبل.. من أين جاءت؟!».

يقال إن الشلة حوّلت ملاحظة صاحب القارب إلى مادة ضاحكة ساخرة: «كانت تائهة إلى أن عثر عليها فوضعوها في مكانها».

«كانت تمشي مشيًا بطالًا بعيدًا عنك، وهي الآن تابت وأنابت، فهمدت أخيرًا في مكانها».

«لا.. لا هذا ولا ذاك.. إنها كانت هاربة من حكم بالسجن، فلما قضت المدة القانونية، ظهرت على هذه الحال».

«بطل تماحيك يا رجل، ووجّه قاربك نحوها».

يُحكَى أنّ:

سلامة هرموش بعد هذا الفاصل المرح، أكد لصاحب القارب مخيمر، إلى جانب بقية الشلة، أنها موجودة منذ الأزل، وأنه دائم التعامل معها، وأن أول معرفة بزوجته كانت في أحد الأعياد مثل هذا اليوم، كانت وأسرتها يستقلون أحد القوارب في فسحة مثل ما هم فيه الآن، وجاء جلوسها أمامه، فتقابلت العيون، ومن هذه اللحظة تأكد شيء بينهما. على الجزيرة وأثناء انشغال أسرتها مع بقية من كانوا معهم في اللعب والاستحمام بجانب شاطئ الجزيرة، استطاع أن يحدثها، ومعرفة بعض التفاصيل، مثل عنوان بيتها، وماذا يعمل أبوها، وهكذا.

لم يهتم أحد منهم بقصته وزوجته، فلما رأى هذا منهم صعُب عليه أن يفقد حماسه تجاه جزيرته كما يصفها، مال نحو أذن زوجته، وهمس لها: «أتذكرين ماذا فعلنا في ثاني زيارة لك للجزيرة؟».

التفتت إليه بحدة، وهمست له أيضًا: «أنت أجبرتني، وعمومًا كنا مخطوبين، ما الذي جعلك تتذكر؟ أتريد فضيحة؟!».

صمت الاثنان صمتًا تامًا..

[10] يُحكَى أنّ:

أفراد الشلة، وهم في القارب الآن، يشق المياه بعيدًا عن المرسى، انشغلوا في: لماذا كذب صاحب القارب مخيمر مدعيًا عدم وجود هذه الجزيرة؟ مع أنه يروح ويجيء في هذه المنطقة من البحر ربما لسنوات عديدة، ومن المفترض أنه يعرف كل ما بها من جُزر!!

حدث أن تبادلوا الحديث همسًا، وطرح واحد منهم رأيًا، قال إن الرجل يطمع في إكرامية مجزية، نفى زميل له يجلس لصقه هذا التفسير، مصرحًا بأنه لو كان يريد هذا لسلك سلوكًا آخر، خاصة وهو العليم، وقائد قارب ينقل البضائع في هذا الجزء من البحر يوميًا، إنه يخفي شيئًا ما.. وما هذا الشيء يا ذكي؟!

«لا أعرف».

يقال إن المسافة بين المرسى الذي تحرك منه القارب إلى الجزيرة هناك يمكن أن يقطعها في مدة تبلغ حوالي ربع الساعة لا أكثر، وهي تظهر جلية كأنها تستقدمهم إليها بسرعة ودون تمهل، اقتنعوا مع ارتفاع هدير ماتور مروحة القارب وتحركه نحو الجزيرة، بعد تبادل النظر بين مرسى القارب من الجهة التي جاءوا منها، وبين معاودة النظر إلى الجزيرة، كانت المسافة بالفعل يمكن أن يقطعها القارب في ربع الساعة، خرج هرموش من حالة الإحراج والكتمة التي سببتها الزوجة مقتربًا من الآخرين خافضًا صوته: «أيحتمل أن هذا الرجل يدبر شيئًا خفيًا لنا؟!».

أجابه واحد من الثلاثة بسخرية ظاهرة: «هل ينوي اختطافنا، وطلب فدية مثلًا؟!».

أما خليل حواس فأنهى الحديث قائلًا بحدة: «أنت تشك حتى في أصابع يديك. يا أخي لا تدبير ولا سر.. إياك وشطحك».

يُحكَى أنّ هذا الشكاك لم يرتدع؛ بل استطاع أن يجعل أوهام شكه تنمو وتزدهر في نفوس الآخرين، حتى أن الزوجة كادت تصرخ مستغيثة، لعل أحدًا في البر أو البحر يغيثهم، إلا أن زوجها مع أنه من زرع الشك استطاع كتم رغبتها بزغرة حادة من عينيه، فابتلعت صرختها مع كمية من الهواء اضطرت أن تخرجها بقوة واندفاع.

رأوا كيف انتبه إليهم مخيمر صاحب القارب، فتشاغل كل منهم في النظر نحو الجزيرة، أو في اتجاه بعيد عن نظراته. كانت فرصة لهرموش، أشار بيده نحو صدره، فجعلهم ينظرون إليه وحده، دون اهتمام بصاحب القارب، قال: لا نعرف من ابتدأ الركض، وماذا قال حتى نتبعه!!

الشوارع الرئيسية ازدحمت بالناس الذين يركضون بخطوات سريعة أو متوسطة السرعة، ولكن الجميع يهرول، ولا يتوقفون عن الهرولة، صار للإسفلت رائحة العرق، بعض المترددين قالوا: «الجري يتعب القلب».

اختطف هذا البعض بشدة من ملابسه، لينضم إلى الجمع، كانت الأنفاس حارة والصدور تعلو وتنخفض بسرعة: «لماذا هذا الجبر؟! ثم من أي شيء نهرب؟».

تسارعت الحناجر إلى الصراخ: «ابتلع لسانك.. وفّر أنفاسك.. اجرِ.. من قال إننا نهرب؟».

«ربما نسعى إلى شيء ما».

«أؤكد أن هذه عدوى كالمرض».

«سكوت.. من أين أتيت بهذا اليقين؟ ألا ترى كل هؤلاء الذين يركضون؟ تجاوزت أعدادهم مجرد العدوى».

هل شوارعنا هي هي؟! كنا نشعر أنها تساعدنا على العدو، كأن هناك من كنسها وعالج حفرها، وزادها اتساعًا، غالطتنا مشاعرنا فرأيناها ازدادت طولًا، نعرف أن هذا لا يمكن أن يحدث، ولكن ما هذا الأخذ الذي تأخذنا إليه لنظل نعدو ونهرول؟! وتظل هي على امتدادها لا تنتهي؟!

الخلاصة هي أن الظنون تشبه حالة العدو المستمر، والتي ربما في كثير من الأحيان لا مبرر لها، والشوارع هي الحياة بدروبها المختلفة.

ضرب خريزة كفًا بكف وهو يقول لائمًا: «الخلاصة قلتها في نهاية حكايتك، يعني كان يمكنك قولها دون ما سبقها، وكل واحد فينا حر في إعمال خياله حتى يحصل على الحكاية التي تخصه، صاح خليل حواس: «لن يكون سلامة هرموش لو فعل ما طلبت منه!!».

[11] يُحكَى أنَّ:

سامي خريزة مال نحو جانب القارب، وأنزل يده في ماء البحر، انفعل فجأة وسحب يده بسرعة وعنف، لم تخفَ هذه الحركة منه عن الشلة، نظروا إليه مستفسرين، وجّه إليهم الحديث زاعمًا أنه رأى مشهدًا عجبًا حدث في الماء منذ دقيقة، لهث وهو يحكي عن أسماك سرطان البحر، وهي أسماك يعرفها، ويسميها «الكابوريا»، يستمتع بشراء وزنتين أو ثلاث كل أسبوع، حين تتوافر في السوق، ما ألذ طعمها بعد أن تُشوَى في نار الفرن، ما كنت أعرف أنها بهذا العنف!!

يا أخي أنت تلف وتدور ولا تضيف شيئًا، ادخل مباشرة على ما تود إخبارنا به.. ما له سمك سرطان البحر الذي نعرفه جميعًا باسم «الكابوريا»؟ حاضر.. حاضر.. سمك سرطان البحر رأيته كما أراكم والله، تشرع كلاباتها مهاجمة سربًا من أسماك رفيعة مبرومة لا أعرف لها اسمًا، كانت أسماك سرطان البحر (الكابوريا) تهاجم عامدة متعمدة مستخدمة مقصاتها في فصل السمكة إلى نصفين، ما رأيته لم يستغرق الثواني؛ لأن القارب سار مبتعدًا بسرعته عن هذا المشهد الشرس الرهيب!!

استقام سامي خريزة وهو يواجه بقية الشلة، بوجه شاحب حقيقي، وعاد يصف ما شاهده بأنه معركة رهيبة، وغير متكافئة بين كائن يملك أداة تقطيع، وبين كائن أملط بلا أدوات يدافع بها عن نفسه، قال له القريب منه من الشلة: «عدت للسفسطة.. طبعك يا سي خريزة، أنت صديق وزميل هرموش!!».

تدخل هرموش منبهًا له ألا يكثر من التشبيهات والمقدمات، أوصلنا

إلى قلب المشكلة مباشرة، تصايح الجميع، وابتسمت الزوجة: «تعالوا يا ناس، اسمعوا من ينصح بخير الكلام ما قل ودل!!».

عاد خريزة للحديث، أخبرهم عما شاهده من دقيقة مرة أخرى، قالوا له إنها الطبيعة، ولا معقب على أفعالها، ومن يعقب لن يصل إلى شيء، خذها كما هي، وتحسّب فقط من غوائلها، ولكن ليكن في علمك أن تحسبك إن فعلته ليس معنى هذا أنك في أمان، عندما فتح عينيه عن آخرهما مبديًا طريقته في الدهشة، أصاب الآخرين بالضحك؛ لأن منظر وجهه يدفع إلى الضحك، كان وجهه يشبه أرنبًا ممسوكًا من أذنيه!!

وقف هرموش وسط القارب تاركًا المكان الذي يجلس فيه لصق زوجته، وقال إن سرطان البحر الذي ندعوه بالكابوريا يحضرني هنا بشطحة، لا بد أن تسمحوا لي بروايتها، وقبل أن يوافق أحد منهم بدأ، ولكن الوحيد الذي مال إلى سماعه برغبة لم يخفها، كان مخيمر صاحب القارب، قال: «احكِ يا أستاذ.. حكمتك كأني أسمع واحدًا من العناترة، لكن تنقصك الربابة».

بان وجه هرموش منورًا بفرحة، وقال: لم يلتقِ سرطان البحر بأخطبوط من قبل، صحيح أنه سمع من الكبار أنه عدو خطير ينبغي اجتنابه والفرار من مواجهته، وينبغي على كل سرطان ألا يهمل الدعاء في كل وقت بألا يكتشف وجوده أخطبوط؛ لأنه إذا رآك واحد فأنت هالك هالك لا محالة، كبر السرطان عبر الأيام والشهور، استطاع فيها موج البحر ونواته المتعاقبة محو نصيحة الكبار، إلى جانب الحياة وما يلزمها من متع تشترك في انطفاء الذاكرة، خاصة

ذاكرة سرطان بحر التي هي أميل إلى النسيان بطبيعتها، فماذا يريد من حياته؟ بالطبع أن يجد طعامه متوفرًا عندما يشعر بالجوع، ويشرب مشروبه المفضل من عصير الأسماك، هذا إلى جانب بالطبع ممارسة حياته مع أنثى سرطان فاتنة، يعقبان فيها سرطانات صغيرة جميلة كثيرة: «ما أروع الحياة».

قالها السرطان، فسمع من يعلق بقوله: «أراك سعيدًا بالحياة؟».

التفت ورأى مخلوقًا غريبًا قبيح الشكل، وله أذرع عديدة، صاح بلا تحرز أو تهذيب: «لا تؤاخذني، إن سحنتك غبية أيها الكائن صاحب الأذرع.. هل هذا طبيعي؟!».

فحّ الكائن الغريب قبيح الشكل وهو يقول: «أنت محق أيها السرطان، مع أن الحياة في الأصل لا تحفل إن كنت جميلًا أو قبيحًا».

شعر السرطان بالذنب، وقبل أن يقدم اعتذاره تم سحبه في خطفة سريعة غادرة، كانت الأذرع التي سخر منها من قبل تلتف حول جسده، ولا تفلته، كان الأخطبوط يثقب درع السرطان بمنقاره القاسي وهو يقول: «هل استطاع جمالك أيها الأهطل منع قبحي من اصطيادك؟».

صاح مخيمر صاحب القارب عقب الانتهاء: «الله يا أستاذ!! عاش النفس، هي الحياة هكذا، بحر متلاطم الأمواج، الغالب فيه هناك من يغلبه».

[12] يقال إن أول من لاحظ مرور أكثر من ربع الساعة التي حددوها من قبل للوصول إلى الجزيرة هي الزوجة، نظرت في ساعة يدها قبل أن تصيح: «شلة.. انتهت ربع الساعة ولم نصل!!».

انتبهوا ناظرين إلى الجزيرة، وجدوها هناك تبعد عن القارب العائم نحوها بسرعة معقولة، بربع الساعة، وكأنهم لم يتحرك بهم القارب في ربع الساعة التي مضت. ترددت بينهم كلمة: «غريبة!!».

فقد ابتعدوا بالفعل عن المرسى، وصاروا في متسع البحر، التفتوا نحو مخيمر صاحب القارب، وجدوه يفتح علبة من الصفيح في حجم كف اليد، بها تبغ سجائر يأخذ منه، ويضعه على ورقة بفرة، ثم يلفها، ويثبت اللف بطرف لسانه الرطب، بعدها أشعلها، وأخرج دخانًا من فتحتي أنفه باستمتاع. حينما رفع رأسه وجدهم يتطلعون إليه، تساءل: أيريد أحد منهم لف سيجارة؟ هزوا رؤوسهم علامة على الرفض، كان يأخذ ذراع الدفة تحت إبطه، وعاد يتساءل ماذا بهم؟

أخبروه أن لا شيء، ولكن الوقت في الوصول إلى الجزيرة ربما يكون ضعف ما حدد من قبل، أجابهم بأن هذا ممكن، وأن القارب يتجه نحوها، وأنه يرى أن فوق يابستها أشجارًا، وعلى حوافها المقابلة يابسة مرتفعة، فهل يسكنها بشر؟

أجابه هرموش بأنها لا يسكنها بشر ولا حيوان، يوجد بها فقط بعض الفئران والسحالي، ولكن هناك موسمًا تتزاحم فيه طيور البحر على شاطئها الشرقي، لتعشش وتتزاوج وتضع بيضها ليفقس، وبعد شهرين تطير هي وأفراخها التي تكون قد كبرت واستطاعت ركوب الهواء، مختفية تاركة الجزيرة خاوية.

استطرد قائلًا إنه في إحدى السنوات، وكان بعدُ شابًا طموحًا كثير الفضول، يبحث دائمًا عن إجابات لأسئلة تدور في رأسه، أخذ فرخ أحد الطيور إلى بيته، ووضعه في قفص، وكان يضطر لقطع جزء من مصروفه الشخصي، والذهاب إلى سوق السمك لشراء سمك من النوع الصغير طعامًا لهذا الطائر، ولكن حدث أن الطائر صمت عن إحداث أي صوت مثلما كان يفعل في المدة الأولى لأسره، وامتنع عن تناول السمك أو شرب الماء، حتى أقنعني بأنه يعيش اكتئابًا عميقًا وصعبًا، وبالفعل ثلاثة أيام ونفق. في مرة ثانية استطعت الحصول على ثلاثة طيور، وغدت إلى بيتنا، هذه الطيور عاشت، ولم تكتئب، إلى أن جاء يوم وأطلقت سراحها في الهواء الطلق، بسبب سأمي، وانتهاء شغفي بتربيتها.

سأل سائل: تجربة عادية، ما الذي كنت تريد قوله لنا من خلال حديثك عنها؟!

بعصبية أجاب على السائل بأنه لم ينتبه جيدًا، فالتجربة الأخيرة والتي قبلها تقول إن الكائن لا بد له أن يوجد داخل جماعة وإلا تدمّر، فالفرخ الأول كان وحيدًا خارج قبيلته التي هو من جنسها وهي من جنسه، فأصيب بالاكتئاب ومات، أما الثلاثة فعاشوا لوجود الواحد منهم بجانب أفراد يشبهونه، هذا باختصار ما كنت أود قوله من خلال قصتي، وأنا لن أصفك بصاحب أفق ضيق، طمعًا في أن تدرب نفسك على نباهة الملاحظة، واستخلاص النتائج. صفق اثنان مع الزوجة إعجابًا.

يُحكَى أنّ..

يُحكَى أنّ ماذا؟!

يُحكَى أنّه:

مضى نصف ساعة، ولم يصل القارب إلى الجزيرة!!

يقال إنهم ظلوا يبحرون نحو الجزيرة المبتغاة خمسة أيام وأربع ليالٍ، خمسة أيام وأربع ليالٍ، ناموا واستيقظوا على وضعهم في محاولة الوصول، ووقعوا في ارتباك ولخبطة وشكوك، هل بالفعل مكثوا خمسة أيام وأربع ليالٍ؟! أم شُبِّه لهم؟!

هناك من أكد، وهناك أيضًا من نفى وسخر، وظل القارب يبحر!!

جاعوا ففتحوا الأكياس التي أعدها سلامة هرموش مع زوجته، هل كان يتنبأ بما حدث؟ كيف يعرف أن القارب لن يصل إلى الجزيرة المبتغاة؟!

لماذا هو جامد الانفعال، لم يسبب عدم الوصول إلى الجزيرة قلقه؟! ربما كانت طبيعته.. يبدو مؤمنًا بالوصول، لم يُصب بالهلع مثل الباقين، صاح بأن يفتحوا أكياس الطعام العامرة بأسماك البوري الفسيخ، والبصل الأخضر، في حقيبة قماشية من حقائب البيت حزمة خس مغسولة ومعدة للأكل مباشرة، وعلبة نصف كيلو من الطحينة البيضاء، وأكثر من طبق مختلف الحجم، وكيس يزدحم بحبات الليمون، وسكين، كما كان معهم جركن يمتلئ بالماء. استخدمت الأكواب الورقية والملعقة الصغيرة، وفُتح غطاء البرطمان الزجاجي المعبأ بالشاي الأسود، والبرطمان الممتلئ بحبيبات السكر. أحضر خليل حواس معه ثلاثة كيلو من أصابع

الموز، كما جاء خريزة بكيس يمتلئ بالبرتقال اليافاوي، وحمل بهنس كيسين متوسطي الحجم؛ الأول به الفول السوداني المحمص، والثاني متخم ببذور دوار الشمس، أكلوا وسدوا جوعهم، وشربوا الماء، وأجّلوا التعامل مع الفول السوداني وبذور دوار الشمس إلى وقت صعودهم الجزيرة –مع أن القارب ما زال لم يصل إليها والوقت يمر- أما الشاي فقد فتح صاحب القارب خزينة القارب الواقعة تحت قدميه، حيث يجلس في أعلى جوف القارب ماسكًا بيد الدفة المتصلة بالماتور، أخرج موقدًا من الصفيح مع كمية لا بأس بها من عيدان الحطب، أشعلت الزوجة النيران بعد أن قدم لها حمدي بهنس ولاعة، مع أنه لا يدخن إلا أنه يحملها معه، تحسبًا لموقف يحتاجها فيه، حاولت الزوجة مع الولاعة أن تجعلها تتوقد نارها إلا أنها لم تفلح، ضحكت وهي تنظر إليه، فأقعى بجانبها حتى أنه اصطدم رأسه برأسها فضحك الاثنان، وتعاونا على إعداد أكواب الشاي، قاما بتوزيعها على أفراد الشلة، ولم يتبقَّ إلا كوب واحد عزمت الزوجة عليه أن يأخذه، يشرب ما به، ثم يعيده إليها، فتصب فيه الشاي مرة أخرى لنفسها، وهو أرجع يدها بيده، وأقسم أن تشرب أولًا، وهو سينتظرها تنتهي، ثم تصب له بعدها، كل هذا راقبه هرموش الذي صاح: «انتهيا.. واحد منكما يأخذ الكوب لتنتهي القصة».

عاد هرموش يصرخ بعد أن وجد خريزة وبهنس يتبادلان قذف حبات البرتقال لبعضهما البعض، أخطأ واحد منهما في الإمساك، فسقطت الثمرة في ماء البحر، وتجاوزها القارب: «هذا فعل أطفال ما تفعلانه، البرتقال للأكل وليس للعب».

كانت سخرية بهنس واضحة، وهو يسأله بعد أن كف هو وخريزة

عن مواصلة قذف البرتقال في الهواء: «بالمناسبة، أليس لديك شطحة عن فعل الأطفال يا هرموش باشا؟».

«عندي يا أبا السياسة، ولكنها ليست مباشرة يا صاحب فعل الأطفال».

قطع على بهنس أن يرد بأي قول، إذ تحدث مباشرة، بصوت يشبه صوت أحد الممثلين المعروفين، وكان يستخدم يديه في إيماءات توازن الكلمات: زُحمت السماء بالأجساد الطائرة؛ نعم نعم.. أجساد بشر تطير، من يرفع رأسه وهو على الأرض لا يرى أي جزء من السماء، ماذا يفعلون بالضبط؟! ما الذي جعلهم هكذا ضد قانون الجاذبية؟!

لم يصدر في البداية أي صوت من أصحاب الأجساد الطائرة، إلا أن من يقف على الأرض يلاحظ كثرة إشاراتهم بأذرعهم، وربما لاحظ مظاهر فرحة تسكن وجوههم، ماذا تفعلون؟

من تساءل يبدو أن صوته لم يصل إليهم، فقد كانوا يمرقون سريعًا بحرفية عالية تمنع اصطدام بعضهم ببعض، من تساءل عاد للتساؤل من جديد: «لماذا نقف على الأرض ولا نحلّق معلهم؟! في موقفنا هذا نبدو بلهاء!!».

«وماذا نفعل؟ كيف نركب الهواء معلهم؟!».

«ركبك مائة عفريت.. ألا ترى أنهم هم البلهاء؟ لماذا يطيرون؟!».

«وماذا نفعل معهم؟ يبدو أنهم يسخرون منا نحن الواقفين على الأرض».

كان اقتراحًا شديد الدموية، ولكن الواقفين على الأرض رأوه اقتراحًا سديدًا، والآن هم يرفعون نحو الأعلى بنادقهم مختلفة الأعيرة، وهم يهدفون.

لم تنته الشطحة يا سي بهنس، ما زالت تتنفس، ويجري في عروقها الدم، لذا وهي في كامل حيويتها رقصت، وهي ترى أن الواقفين على الأرض يتراجعون، ذاهبين سريعًا نحو بيوتهم أو أشغالهم: «تراجعوا، لن نعود إلا إذا وجدنا طريقة تجبرهم على الهبوط أو الموت».

كانت الطلقات التي يطلقونها لا تبلغ من يطيرون، تخترق الفضاء إلى مسافة، تتوقف بعدها جزءًا من الثانية، ثم تعود ساقطة نحو الأرض!!

قال بهنس بتسليم واضح: «أعترف بأنك بارع في مراوغاتك سيد هرموش، إلا أنها تبدو حكيمة بالفعل».

انتبهوا في هذه اللحظة التي تكلم فيها من صعد معهم إلى القارب، ظل صامتًا طول الفترة التي مضت، حتى ظن الجميع أنه أخرس في البداية، كانوا يظنون أنه صديق بهنس دعاه بعد دعوة خريزة له، قال كأنه يكمل ملاحظة بهنس: «وتحتاج للتفكير قبل أن تتحدى وتقول أنا أبو السباع وعندي التفسير والرأي».

[13] يُحكَى أنّ:

الرجل الخامس الذي صعد معهم القارب، وتصور كل فرد منهم أنه صديق أو زميل لواحد منهم دعاه بنفسه لهذه الرحلة، لم يجذب انتباه بقية الشلة بسبب لجوئه إلى الصمت المكين، وعدم مشاركته في أي حوار دار بينهم، أو التأثر بما يحدث، هو فقط تقدم لتناول الطعام، ومد يده طالبًا بإشارة وإيماءة كوب الماء، وكذلك فعل مع كوب الشاي، كل ذلك وهو ينزوي في مكان اختاره منذ بداية الرحلة ولم يغادره، في منتصف القارب تمامًا كان، حتى أن سلامة هرموش وكان به طبع الفضول وجد نفسه زاهدًا في فتح حوار معه للتعارف، ظنه أخرس في بداية الأمر، حتى أنه مصمص بشفتيه إشفاقًا، انشغل مع الجميع بأمر الجزيرة، ورؤيتهم للقارب وهو يشق الماء نحوها، ولكنه لا يقترب، وهي كأنها تبتعد!!

حدث أنهم جميعًا انشغلوا بإخراج هواتفهم المحمولة، وتلقوا صدمة عدم وجود إشارة..

«هل نضيع؟!».

توجهوا إلى مخيمر صاحب القارب بصخب رافعين أصواتهم مع تحمير عيونهم: «هل تشارك في خداعنا؟ ماذا تريد منا؟».

فز صاحب القارب من جلسته، ولكنه أسند يد الدفة بقدمه، صاح فيهم إنه معهم، وما يحدث لهم يحدث له، وأنه أخطأ في الموافقة على نقلهم إلى جزيرة تهرب من الوصول إليها، وهذه عجيبة لم يسمع بها، لا في أخبار القدماء، ولا في قصص الأحياء، ولا حتى خرافاتهم!!

حاول بعد حديثه أن يعود بالقارب إلى المرسى الذي أبحروا منه، لم تطاوعه الدفة، وتفصد عرق جبينه، وهو يصيح: «نحن مسحورون.. هذا قولي، وإلا من كان عنده تفسير مختلف يريحنا به لنعرف رأسنا من أرجلنا!!».

«ولماذا لا يكون الساحر هو أنت؟ لا تجعلنا نندم على اختيارك وقاربك».

تأمل صاحب القارب البحر من حوله، وهم أيضًا داروا بعيونهم محيط دائرة كامل، وهالهم أن البحر من حولهم خلا من القوارب والمراكب والسفن واليخوت، بان لهم أنها اكتملت، ومع ذلك طلبوا من بعضهم البعض الصراخ لعل أحدًا يسمعهم، عندما وجدوا أصواتهم ترتد إليهم رجع صدى، ازدادوا ارتباكًا، كأن أصواتهم تصطدم بجدر صخرية، فتعود إليهم مؤذية لآذانهم، تساقطوا على أرضية القارب أولًا، ثم قاموا على ركبهم، كل واحد يتطلع إلى الجزيرة ممنيًا نفسه بأن ما حدث ربما لم يحدث، وأنهم في حالة نوم ويحلمون، وسوف يستيقظون، ويصعدون يابسة الجزيرة، ويقضي كل واحد منهم وقته على حسب ما خطط له.

يقال إن انتباههم للغريب بدأ في هذه اللحظة، اتجهت الأنظار نحو بهنس، وسألوه أأتى أمرًا –وأنت تعلم ماذا نقصد- في الأيام الأخيرة مما يجعل المباحث ترسل خلفك مخبرًا لمراقبتك؟

قبل أن يجيب بهنس راح خليل حواس ينوح بأن بهنس جعله شبهة، وهو طول عمره يعيش في الظل، يعني في حاله، لا له في السياسة، ولا يحزنون، الآن يعلمون أنني أبادلك نفس أفكارك، منك

لله يا بهنس.

هرموش ربت على كتفه، وقال: والله عندك حق يا حواس، بهنس هذا تحت الملاحظة دائمًا، وإخواننا الذين أرسلوا هذا المخبر يعرفون كل واحد منا، اطمئن هم يعرفون أن محلك محل العدد في الليمون، أنا عرفت هذا عن تجربة، ولكني التزمت الصمت ولم أقصها عليك، اعلم يا صاحبي أنني وُضعت في موقف صعب، بدأ بدخول أحد المخبرين عليّ بالمصلحة، أقصد مكتبي بالمصلحة، وهو يشبه هذا المقرفص وسط القارب، تصورت في البداية أنه أحد المتعاملين مع مكتب الشهر العقاري، فصحت فيه أن يذهب للخزينة التي في الدور الأول، ليدفع مصاريف المحررات التي يطلبها، إلا أن الرجل لم يتحرك، وتحدث بطريقة تهديد مبطن، وبمهارة تجعلك تخاف بالفعل، رفض كوب الشاي الذي أمرت عامل البوفيه بإحضاره وتقديمه للباشا، بعد أن عرفت مهمته بالضبط، بكلمات واضحة لا لبس فيها ولا غموض، وهو يستدير للمغادرة قال: عليك يا سي سلامة هرموش الحضور في تمام السابعة مساء إلى مكتبنا بمديرية الأمن، عندك مقابلة، حين تصل ستعرف من ستقابله، لا تتأخر.

لم أكن أعلم شيئًا يخص الزميل بهنس من الأصل، والرجل المخبر لم يأتِ في المدة القصيرة التي قضاها في مكتبي على سيرة بهنس من قريب أو بعيد، وقعت كما تقول الكتب القديمة في حيص بيص، والسؤال يدوم في رأسي، ويعقب صداعًا وزغللة: ماذا يريدون مني؟! وكلما طرحت السؤال تأتي الإجابة: لا أعرف سببًا يجعلني أذهب إليهم، أنا رجل في حالي!!

يقال إن سلامة هرموش اختصر عندما وصل إلى ذهابه في الموعد، ودخوله على أحد الضباط، وهو يرتدي ملابس مدنية، الحقيقة أنه استقبلني أفضل استقبال، وسألني عن قهوتي، فقلت بصوت خافت: مضبوطة لو سمحت يا باشا، انتظرني حتى شربتها في ثلاث جرعات لا أكثر، ثم فتح حديثًا عن العاملين معي، وكلما ذكرت اسمًا طلب غيره حتى وصلنا إلى سي بهنس، فقال: ماذا تعرف عنه؟ هل يوزع منشورات في المصلحة؟ فانتفضت وقلت إنه لا يجرؤ، ثم أعقبت بأنني لم أره يوزع ولم يخصني أنا شخصيًا بأي منشور، ثم قلت: يا باشا بهنس هذا قارئ للروايات، يتحدث كثيرًا لأن هذا طبعه، مثل واحد آخر يكون طبعه قلة الكلام. عندها شكرني، وأمرني بالانصراف. كانت ملابسي يمكن أن تعصرها من بلل العرق الذي ينز من كل مسام جسمي!!

ضحك بهنس وقال: أخفت نفسك ووترتها دون سبب، لماذا نتعامل مع أجهزة تباشر عملها الذي وجدت من أجله بريبة؟!

لم يجب أحد على ملاحظته. مال خريزة على أذن حواس، وقال له ألا يستمع لحديثه، فربما كانت حفرة حفرها ليوقعنا جميعًا فيها، حواس سأله: كيف؟ قال له: كلامه عن الأجهزة التي تباشر عملها لا يطمئن، فهو أراد أن نتكلم بجرأة، هنا الحفرة، سوف ننتقد ونشكو وربما نسب الحكومة نفسها، فينتقل كلامنا إليهم، فجأة تذكروا هواتفهم المحمولة فعادوا إليها، لعل وعسى أن تعمل الشبكة، ليجربوا مرة ومرة، لا بأس، من أجل توثيق رحلتهم سواء عبر الصور أو المقاطع الحركية بخاصية الفيديو، تهمة الكذب في كل ما يدلون به سوف تلاحقهم؛ إذ ليس معهم دليل!

أشار واحد منهم إلى نقطة اعتبرها شيئًا حيويًا، متوقعًا سؤال أحد الخبثاء في هذه النقطة بالذات، متجاوزًا نقاطًا أكثر خطورة في وضعهم الغريب، هذه النقطة المهمة هي كيفية قضاء حاجتهم من بول وغائط، في قارب محدود المساحة، ليس فيه مكان مستور، كما أن وجود الزوجة يزيد من حجم الورطة ويعقلها، بعضهم استطاع أن يتحايل ويخضع أعضاءه فلا تطلب الخلاص إلا ليلًا، يتسحب الواحد إلى قرب مؤخرة القارب ممسكًا بعامود خشبي من هيكل صغير صنعه صاحب القارب ليكتسي بقماش الخيام ليحميه من أشعة الشمس أو هطول المطر، ولكنه لسبب ما لا يعرفونه خلعه وبقي الهيكل، كان حلًا غير عملي من تصور أنه يمكنه أن يخادع جسده، باللف والدوران حول حاجاته، فالوهم بإخضاع أعضاء الجسد ثبت أنه وهم، فالجسد له نظامه الصارم، إن تجاوزت معه مرة فلن يسمح لك في المرة المقبلة.

وضع صاحب القارب لهذه المشكلة الحل، بعد أن حدثه هرموش؛ إذ فتح خزانة القارب، وهي تحت أقدامه، لم يتعرفوا عليها إلا حين أخرج من صدره مفتاحًا طويلًا من تصاميم مفاتيح زمن مضى، معلقًا حول رقبته بخيط سميك، وعالج فتحة غير واضحة، أو غائبة عن ظنهم، ففتح ضلفة، وأخرج قماش قلع سميكًا، أخذ يصنع ساترًا أمام من يكون في القارب، بينما ترك الجانب المطل على البحر خاليًا، مفتوحًا عليه، وشرح للرجال همسًا، وقال إن على الأستاذ هرموش أن يشرح فيما بعد لزوجته. على من يريد قضاء حاجته أن يقرفص على جانب القارب ممسكًا بحبل مربوط بجسد القارب، على أن تكون مؤخرته للبحر مباشرة، وبهذا يستطيع إراحة نفسه، وهو مستور لا

ـداه من في القارب.

[14] كانت وما زالت الطبيعة الأم لها تدابير لا تأتي على بال ولا خاطر. جاء يوم من أيامها شديد الرياح العاصفة المدمرة، اقتلعت النخل والشجر من مكانه وطيرته، هناك بعض البيوت أخذت تطوحها حاملة لها أعلى من سطح الأرض بأمتار. استمرت أحوال الطبيعة لا تستقر على مستقر، ثم ضاعت البيوت داخل كتلة من الأتربة الهائجة، هذه الأتربة تأخذها الرياح في قبضاتها، وتسفوها في وجوه السكان كأنها عامدة فعل الفعل، تحوّل النهار لظلام. اضطربت الأرض وتلاعبت بالجماد والعباد، سمعوا قعقعات متعاقبة، وصخب غريب آذى آذانهم، جعلهم يصرخون في فزع: «إنها القيامة».

هدأ كل شيء فجأة، كما جاء فجأة، لم تكن القيامة إذن.

عندما خرجوا يستطلعون، وجدوا على طول شاطئ النهر الذي يسمونه باسم بلدهم نفسه، سلسلة جبال عالية حجبت عنهم تلألؤ المياه، والمراح والمتعة والخير الوفير، أصبح النهر شيئًا من الماضي يُحكى، ولا سبيل للوصول إليه، فقد أعطتهم الطبيعة في تحولها الغاضب مانعًا صلبًا مصمتًا شاهق العلو بديلًا عن الشاطئ، كانت فعلة الطبيعة قاسية، لا رضاء عنها ولا امتثال.

الفكرة هي دفع ناس هذا البلد لاختراق هذه الجبال، ومحاولة إزالتها، بكل ما توفر لهم من معدات وآلات. توجد الفكرة حيث الأزمة، تبدأ الأزمة في السخرية، وهي تواجه أفعال البشر سواء أكانت حمقاء أو منطقية خالية من المستحيل، ثم الأزمة في الهروب لأن ما يفعله البشر لا يطاق، فهم بدؤوا في هذا البلد يعدُّون عدتهم لاختراق السلسلة الجبلية، كانوا يشيرون بأصابعهم السبابة إلى

أدمغتهم: «هيا إلى العمل».

أتعرفون كيف؟

قل يا حواس.. قل أنت يا بهنس، فأنت تعتقد في نفسك أن لديك الحل لكل الأحجيات.. قل أنت يا خريزة، لا تعرف، فأنت تعودت ألا تشغل بالك.. قولي أنت يا زوجتي، أنت تقولين دائمًا: الرأي رأيك يا سي سلامة.. قل أنت يا مخيمر.. أقول يا أستاذ إنه ليس أمامهم إلا أن يطيروا فوق هذه الجبال.. وإذا لم يستطيعوا؟.. يتعلمون رويدًا رويدًا كيف يطيرون، وها هم يسبحون في الفضاء متجاوزين هذه الجبال إلى الجانب الآخر!!

«لا فض فوك يا أستاذ هرموش!!».

«إياك أن يفكر من يريد قضاء حاجته في الطيران.. هاهاها».

«اسكت.. اسكت.. أنت خيالك ضحل، لقد سخفت الفكرة بتعليقك هذا!!».

[15] يُحكَى أنّ:

يُحكَى أنّ ماذا؟

يُحكَى أنّ أول من استخدم هذه الأدبخانة كما أطلق عليها مخيمر صاحب القارب، هو هذا الصامت الذي ظن سلامة هرموش أنه أخرس، وظنه خليل حواس أنه صديق لصديقيه سامي خريزة وحمدي بهنس، ثم تطور الأمر ليتفق الجميع على أنه مخبر يتبع خطوات زميلهم الموصوف بطويل اللسان، دائمًا يوجه النقد للبشر وللحكومة، وحتى إلى نفسه، لسانه عضلة حية لا تهمد حركتها، المهم أن هذا الرجل نجح في الصعود معهم، واصطحابهم موهمًا كلًّا منهم بأنه صديق زميل معهم عند الصعود إلى القارب.

كانت لحظة رغم رعبها إلا أنه صاحبها ضحك صاخب، هكذا العالم يحلو له عرض الشيء ونقيضه، تبدأ الوقائع لحظة أن صرخ وهو ممسك بالحبل المربوط بالقارب، الذي نبه عليهم صاحبه بالقبض عليه أثناء قضاء الحاجة، بينما يُجر جسده في ماء البحر، أدهش الجميع أنه يطلب توقف القارب وإنقاذه من الغرق، فهو لا يجيد السباحة، بصوت واضح فيه بحة ولهجة، يبدو أن الجميع كانوا على نفس الظن في اعتباره أصم أبكم، مع أنهم أكدوا لبعضهم البعض أنه مخبر!!

يقال إن هرموش حينما أبدى ملاحظة لزميله خليل حواس، وهما معًا يمدان يد المساعدة مع صاحب القارب في إنقاذ الرجل، مفادها أن صاحبه هذا يتكلم بلهجة الصعيد، فأين ومتى صار صاحبه؟

أنكر حواس معرفته به من الأصل، قال هرموش بلهجة تحمل

شرًا مستطيرًا، إنه لا يقصد هذا الذي وصل إليه، بل يقصد أن هذا المخبر كان يراقبه هو بعينه، ولأنه عرف أن بهنس سوف يقابلك أمام بيتك، فيقترب منكما، وكل منكما يظن أنه صاحب الآخر، إنه ذكي بالفعل، قال حواس: هل هذا فيلم لجيمس بوند؟! خلاصة القول إنه لا يعرف، فإنه يعطي باء في شغل المباحث والمراقبة، ولا يشغل باله كثيرًا، ثم سرد الواقعة بحديث عجيب، فقال إنه كان يجلس على المقهى قرب بيته في انتظار خريزة وبهنس، سمع صوتهما، فلما التفت إلى حضورهما من شارع يعطي له ظهره، كان هذا الأخ يقف بجانبهما، فظنه صديقًا لهما، وعلى هذا سار معهم، قائلًا لنفسه إنه لا بأس من وجوده مع أصحابه الذين هم أصحابه، وإن مناسبة شم النسيم مناسبة احتفالية تحب اللمة، ويمكن أن يساعد فيما نعلمه أنا وأنت، جز هرموش على أسنانه وهو يقول له إنه أعطى لنفسه حرية ضم من يريد دون تمحيص أو دراسة، الرجاء ألا يكون سببًا في صنع المشاكل، طريقته أو قل خطته التي جعلته يصعد القارب مثلهم، ولا يكتشف أنه غريب حشر نفسه في الشلة والفسحة، لا يمكن أن تكون صدفة أو غير مقصودة، والأخطر أنه لا بد من إشراكه فيما هم مقدمون على فعله بأرض الرمال!!

كانت المشكلة أنه حينما انزلقت قدما هذا الغريب، وهو يقضي حاجته عن حافة القارب، وظل مسحوبًا في ماء البحر مدة فقد خلالها بنطاله، وعندما وقف التقت عيونهم منظر ساقيه الرفيعتين المشعرتين، والماء يتساقط من قماش لباسه الداخلي، سلامة هرموش كان همه أن يحجز الرؤية عن زوجته، وقف أمامها، وصرخ: «استر نفسك يا أخ».

تصرف صاحب القارب بسرعة مع أنه كان يضحك، دون محاولة منه لإخفاء ضحكه، من نفس خزانة القارب فتش بها، وعثر عليها، قطعة قماش قديمة ناولها له، منبهًا عليه أن يلفها حول وسطه لتغطي نصفه الأسفل، عندما فعل أخرج الجميع حتى الزوجة مكنونهم، وتصاعدت ضحكات الجميع، فقد ظهر الرجل كأنه فقير هندي، هرموش سأله عن اسمه، ولماذا صعد معهم القارب؟ هكذا دون مواربة، خرجت كلمات الرجل بصعوبة، فعرفوا أن اسمه «بلتاجي»، وأنه يريد الذهاب إلى الجزيرة مثلهم، وقضاء يوم جميل يشم فيه النسيم، ومستعد أن يدفع نقودًا قيمة وجوده معهم وتناوله الطعام، أسرع هرموش بلهجة مستنكرة يقول إنه ضيف، ولا يصح منه أن يتحدث عن ثمن طعامه، فالخير وفير، ولن ينقصه مد يده إليه ومشاركتهم، قال ما قال ظنًا منه أن إجابته سوف تفتح الباب أمامه، واستكمال سلسلة أسئلته، فلما أراد معرفة أكثر عنه، مثل من أي بلد هو؟ وما هو عمله؟ تلقى صدمة، فالرجل أجاب عن كل هذه الأسئلة بذكر اسمه فقط، لفظه من بين أسنانه: «بلتاجي هذا اسمي».

ثم زحف إلى مكانه المعهود بعيدًا بقدر مساحة القارب عن بقية الشلة، وهو يعلن أن على الأستاذ الاكتفاء بالاسم، وسبب وجوده على القارب ذكره من قبل، وعليه ألا ينتظر أية معلومة أخرى، فلن يحصل منه على المزيد، وتركهم مستديرًا دون أن ينظر إليهم!!

[16] يُحكَى أنّ.. يُحكَى أنّ ماذا؟!

يُحكَى أنّ:

القارب توقف عن شق ماء البحر نحو الجزيرة، ووُجد عند منتصفه تمامًا خرق بباطنه، والمياه تندفع من البحر إلى داخله كالنافورة، والجميع نيام، حتى صاحب القارب لف نفسه بشال واحتضن يد الدفة ورأسه يميل على صدره، مصدرًا صوت شخير في تتابع، أحيانًا يرتفع، وأحيانا ينخفض، زوجة سلامة هرموش تنعي حظها، وتتهمه بأنه سبب المصائب في حياتها، حاول الدفاع عن نفسه، وذكّرها بأنه لا يصح أن تحدثه هكذا أمام أغراب، مشيرًا إلى من معهم على القارب، ثم أكمل حديثه مبتسمًا مقتربًا منها: «أأنا سبب مصائب حياتك أم سبب متعتها؟ ضعي عينك في عيني، وقولي الصدق».

أيقظت صرختها الجميع، ومرت دقائق حتى استرجع كل منهم يقظته تمامًا، بعد السؤال عن ماذا حدث؟!

رأت الزوجة أن القارب سليم في هدأة الليل والفراغ حولهم، لا تسمع إلا تكتكات الماتور، والقارب يتجه نحو الجزيرة ولا يصل، اضطرت بعد سؤالهم الملح المتكرر: ماذا حدث؟ أن تقص عليهم منامها مع إسقاط جملة زوجها، فلم تذكرها، ناحت متسائلة: إلى متى يظلون على هذا الوضع؟ لا يصلون، ولا يرجعون؟!

صاحت بعد السؤال بأنها بدأت تمل، وليكن في علم الجميع أن مخزون الأكل قد نفد، ضرب زوجها صدغه براحة يده صائحًا: «ماذا تقولين يا سوسو؟! كله يهون إلا خواء البطون».

كانوا جميعًا كمن فقد كل منهم لسانه أمام هذا الخبر الفاجعة، ومع أن الزوجة نفت فيما بعد هذه المعلومة، وأشارت إلى أن أكياس الطعام ما زال بها بعض المؤن، ربما تكفي يومًا، وأن عليهم تناول وجبة واحدة في اليوم إن أرادوا استمرار اكتساب يوم أو يومين، المشكلة آتية.

يقال إن بهنس اقترح أن يبدأ صيد الأسماك، فهو معه سنارة، وطُعم من الجمبري، أحضره لسابق رغبته في قضاء بعض الوقت على شاطئ الجزيرة، والتمتع بالقراءة والصيد، كلا الأمرين معًا متعة لا تدانيها متعة، القراءة أثناء الصيد بالسنارة، وجمع السمك الرزق وتقديمه بعد شيه للشلة، سيشترك الجميع في جمع الحطب من على الجزيرة، لتقام موقدة هائلة، لتكون غدوة لا تنسى، قالوا: «أنت تحلم يا بهنس، فأين نحن والجزيرة؟!».

كان الشك يسكن العيون المتطلعة إليه، لم يره أحد عندما صعد القارب ممسكًا بعصا سنارة، هل يقصد أنه سوف يستخدم قذف الخيط؟ أجاب بأنه يقصد السنارة ذات العصا، قال هذا وهو يُخرج من حقيبة يده عدة عُقَل يلحم بعضها ببعض، فاستوت في النهاية عصا سنارة في نهايتها خيط، في نهايته هلب صغير يلمع معدنه، أخذ يشبك في جسم الهلب واحدة من الجمبري، قائلا إنه سوف يبدأ الصيد الآن، صاحب القارب رحب بالفكرة، وقال إن لديه بعض الحطب، والموقد الصفيح يمكن استخدامه، اعترض بعضهم قائلين إن الحطب سينتهي، وإن الصيد حينها سيكون بلا معنى إلا إذا قرروا أكل السمك نيئًا!!

حدث أن انفعل هرموش دون أن يفرض عليهم هذه المرة شيئًا من شطحاته، وجّه حديثه إليهم بعنف وحسم، قائلًا إن تفكيرهم تفكير سلبي، وإن عليهم أمام ظرفهم الحالي اتباع سياسة ما يأتي خُذه، ولا تفترض شيئًا قبل وقوعه، أحدثت كلماته أثرها فورًا؛ إذ لزم الجميع الصمت، مع الترقب.

بعد دقائق، عادت الزوجة تتحدث، صارحت الجميع بقولها إن كل من هو فوق القارب قد توافق ووافق وعاش ما يحدث، ونسوا أهم شيء في الموضوع، وهو القارب العائم نحو الجزيرة، والجزيرة التي لا يصل إليها، تساءلت: أليس هذا جنونًا ربما أصبنا به جميعًا في لحظة واحدة، هي لحظة نزولنا من اليابسة إلى سطح هذا القارب؟ هذا الجنون يجعلنا نرى القارب والجزيرة وهما لا يلتقيان؟!

واصلت قائلة: هل نحن في منام واحد؟

منام واحد نتشارك فيه؟!

لا.. رأيت النهار والليل يتعاقبان، والشمس والقمر، الأولى مع النهار، والثاني مع الليل، ظهري بدأ يؤلمني بسبب الجلوس الطويل والنوم كذلك جالسة!!

بكت فجأة، لم تكن نوبة قصيرة وتنتهي، ظلت تواصل البكاء، مَن على القارب لم يعرفوا كيف يتصرفون في الموقف الذي ازداد صعوبة وهي تواصل البكاء.

يقال إن هرموش اقترب منها حتى كاد أن يحتضنها، وهمس بلهجة خاصة: «سوسو؟».

قيل إنه لما رفعت وجهها إليه، قال: «أنا معك».

فامتنعت فورًا عن البكاء، بل ابتسمت أيضًا.

يقال إن هرموش بعدها همس في أذنها بشيء لا يعلمه أحد ممن على القارب، سكتت وحاجب من حاجبيها تراقص سريعًا في لمحة، صاح هرموش بصوت مسموع للجميع: أولًا في مسألة التّواؤم، أحب أن أقول لك إنه لولا الوِئامُ لَهلَك الأنامُ، أما ثانيًا في مسألة أننا أصبنا بعارض ما يجعلنا نظن أن القارب يشق الماء نحو الجزيرة، ولكنه لا يصل إليها، أنا لم أقرأ في حياتي أو أسمع عن مرض مثل هذا، ولماذا تسمينه مرضًا ولا تقرين بأن ما يحدث هو معجزة لها حكمتها، ما زالت عقولنا قاصرة عن فهم مغزاها، وهذا لا يعني عدم حدوثها، والتسليم بوجودها.

حمدي بهنس ابتسم بسخرية لمحها، فصاح: «عندك اعتراض يا سي بهنس؟ أكيد، فهو طبعك أن تعترض».

«كنت أريد فقط أن أطلب من حضرتك وضع كلمة سبب موضوعي بديلًا عن كلمة معجزة».

أجابه بعصبية: أفدنا يا عبقري بهذا السبب الموضوعي، لعلنا نصل إلى الجزيرة.

يقال إن كل من على القارب وقفوا ضد بهنس، ووصفوا حديثه بالسفسطة، وادعاء المعرفة، وأن هناك في عالمنا أشياء تحدث لا تفسير لها، كما حاول هرموش القول. طلبوا منه أن يستعمل سنارته، ويتوقف عن الثرثرة غير النافعة، أحنى بهنس رأسه في حركة

مسرحية أمام الجميع: «حاضر.. حالًا».

ذهب إلى خلفية القارب، ووضع سنارته في الماء، لم تمضِ دقيقة وسمعوا تهليله، مع ضرب سطح القارب بقدمه، وهو يعلن أن سنارته علقت، وفسر أن بها سمكة كبيرة وعفية. شد انتباه الجميع، فمضت كلمات هرموش دون بحث وتمحيص جادين، وكأنهم اكتفوا بما حدث من جدل على قلته، وعدم الوصول من خلاله إلى نتيجة، تركز اهتمامهم في الحدث الذي صاحبه صخب وانتظار رؤية هذه السمكة على سطح القارب، صرخ فيهم مخيمر صاحب القارب أن يعود كل واحد إلى مكانه، فقد تجمعوا في ناحية واحدة، الثلاثة بهنس وخريزة وحواس، ومال القارب ميلة خطرة تنذر بانقلابه. بالفعل تراجع الاثنان، تاركين بهنس يناضل مع السمكة إلى أن حصل عليها، ورماها في قاع القارب، كانت سمكة تونة بزعنفة صفراء، ظلت تحرك ذيلها، وتفتح فمها وتغلقه مع خياشيمها بالتبادل مدة، حتى همدت حركتها.

[17] يُحكَى أنّ:

انتاب الجميع ولع بالحصول على أسماك أكثر، بلتاجي الدخيل على الشلة تحرك ووضع الحطب في الموقد الصفيح، وأشعله باستعمال ولاعة بهنس التي ظلت مع الزوجة، أعطتها له، يبدو أنه يعرف أنها معها، نظر إليها دون كلام ففهمت، ومدت يدها إلى صدرها حيث أخفتها، أشعل النار، ثم ضرب السمكة بسيف يده على رأسها، ووضعها على النار، دقائق وفاحت رائحة الشواء، كان من رأى مخيمر صاحب القارب انتظار الحصول على أسماك أخرى والعمل عليها مرة واحدة، أرسل إليه بلتاجي نظرة حادة يكمن بها غضب ناري ألزمته إمساك لسانه.

التفت نحو الزوجة، وكانت تجلس بالقرب منه، قال غير لافت وجهه نحوها، إنه ظل ثلاثين سنة من عمره لم يأكل السمك، ولم يعرفه، أكيد عرف أن دهشة حطت على وجهها، فواصل قائلًا إن أول مرة التقى بالسمك كانت في الإسكندرية عند جماعة بلدياته سبقوه بسنين طويلة لهذا البلد الذي يعشق الأسماك، وفيه أسواق عدة يباع فيه وحلقات، خفت وأنا أجلس أمام طبق به عدة قطع من سمكة كبيرة مغموسة في شربة لونها بني، دار في ذهني أنهم ذبحوا خروفًا، وهذه أقدامه مقطعة إلى جِزَل، أي إلى قطع، وقد فسدت أثناء طبخها، أو كانت مريضة في الأصل، فكان هذا اللون!!

رأيت من استضافني يأكل بنهم، فلما رفع رأسه ووجدني أنظر إلى الطبق بريبة، شرح لي أن هذه أكلة مشهورة هنا، وهذا سمك بوري، والطبخة تدعى «الصيادية»، فلما تذوقت قطعة بحذر إكرامًا

للمضيف، وقعت في غرام هذا النوع، وفضلته حتى على المشوي أو المقلي!!

كان يدور في ذهن الزوجة أن هذا الصامت الذي يتجنب الجميع، وظنوا أن به عاهة تمنعه من الكلام، سليم ومعافى ويعرف الكلام. انقطع الحديث لأن الزوجة هبت واقفة من أمام الموقد الصفيح لاهتمامها بالسمكة الجديدة التي اصطادها بهنس، وكانت سمكة دنيس تزن وحدها الكيلو أو أكثر، سلمتها لبلتاجي الذي وضعها فورًا على النار، بعد أن فعل نفس ما فعله بسيف يده مع سمكة التونة. يقال أيضًا إن الأسماك توالت بين التونة ذات الزعنفة الصفراء والدنيس، وارتفع دخان الحطب.

رجعت الزوجة إلى جانب زوجها هرموش، مالت نحوه بعد أن جلست بجانبه، سألها عما دار بينها وبين بلتاجي من حديث، فحكت له متعجبة من أنه يجيد الكلام.

طلب بلتاجي المزيد من الحطب، إلا أن صاحب القارب قلب راحتيه، وقال كلمة واحدة مختصرة وباتة: «انتهى».

حدج كل منهما الآخر بنظرة حادة لاحظها هرموش، ونبه زوجته لترى ما رأى، مع أنه غمض عليه سبب ما يفعله الرجلان، تفلسف مع زوجته، قال لها إنه صراع الأشباه، فقد لاحظ أن لهجة صاحب القارب هي نفس لهجة بلتاجي هذا، أي أنهما من الصعيد، ويحتمل أن يكونا من نفس البلد.

تناول الجميع السمك المشوي بنهم، خلاف بهنس الذي ما زال مشغولًا بسنارته وما تقتنصه من أسماك، تغنّى بعضهم بطعمه الطازج

اللذيذ، ومع هذا تمنوا أن يصلوا إلى الجزيرة في غمضة عين، عادوا لمناقشة الأمر في احتداد وضيق صدر، خاصة وأن أكواب الشاي مُلئت لمنتصفها فقط، كما أن خبر انتهاء حطب الوقود أصابهم بإحباط، خاصة وأنهم توقعوا أن يكون الحطب من خشب القارب نفسه!!

«ياللمصيبة!! القارب يحملنا، كيف نُغرق أنفسنا بعمل أيدينا؟!».

«أنموت جوعًا؟!».

«ما هذا التفكير؟!».

سلامة هرموش قال إن هذا التصور موجود، قرأه أو سمعه ولكنه لا يتذكر أين، لكن ربما هو تصور غير مسبوق جاء من واقع ما هم فيه، وأكمل قائلًا: تصوروا عمق المأساة في اضطرارنا لاستعمال خشب ملجئنا الذي يحملنا، وحمله لنا هو الحفاظ على حياتنا حتى لو شحت المؤونة، ونفد ماء الشرب، القارب هو الملجأ والحماية، ما رأيكم لو احتجنا خشبه، وبدأنا نخلع ألواحه؟!

صاحبه خليل حواس صاح في وجهه: «أيتها البومة.. فأل الله ولا فألك يا أخي».

زعم أحدهم أنه كادت تقوم بينهم فتنة، بداية من مخيمر صاحب القارب الذي أعلن أن لحظة موافقته على نقلهم كانت نحسًا، وزادت عصبيته لدرجة جعلتهم يتصورون أنه يمكن أن يتهور ويقذف واحدًا أو اثنين منهم إلى البحر، فقد فرغ حُق التبغ من التبغ، ولم يتبقَّ معه إلا دفتر البفرة. تساءل بعلو صوته: ماذا سيفعل به؟ حمدي بهنس

امتنع عن استعمال سنارته لأنه اتهمهم بالأنانية، بعد أن تناولوا الأسماك التي اصطادها بسنارته دون أن يتركوا له إلا بقايا الرؤوس والبطون. هرموش غضب جدًا من وصفه بالبومة من صديق عمره، وزميله في مصلحة الشهر العقاري؛ خاصة أمام زوجته، فصرخ في وجه حمدي بهنس ليعيد لنفسه شيئًا من هدوئها، ويضع حدًا لأي مهاترة، قائلًا بنرفزة وعصبية: «احفظ أدبك يا بهنس.. اجلس بعيدًا عنا».

صحيح أنه أخطأ الهدف الذي سبب ضيقه، ولكنه بصياحه استراح!!

في المرة الثانية التي سبّ فيها مخيمر صاحب القارب الوقت الذي رضي فيه بنقلهم، وهو يمسك علبة التبغ بعد أن فتحها فوجدها خاوية، وكأنه كان يمنّي نفسه أن يفتحها فيجد فيها التبغ، مع أنه يعرف بفراغها، انبرى له سامي خريزة متحديًا قائلًا له إنهم لم يجبروه على شيء، وحتى يفك هذا الاشتباك عليه أن يعود إلى المرسى، هذا لو كان يستطيع، فسكت الرجل متشاغلًا بخلع طاقية رأسه، ثم إعادتها إلى رأسه مرة أخرى.

[18] يُحكَى أنّ:

.. يُحكَى أنّ ماذا؟

يُحكَى أنّ حمدي بهنس أثار ضجة حول حقه في امتلاك كيسَي الفول السوداني، وبذور دوار الشمس، وبقية الشلة ترى أنهما من حق الجميع، بدأ تذمر الشلة منه بعد أن لاحظوا أنه كبَش من كل كيس كبشة ومنحها لزوجة هرموش، ظنًا منه أن لا أحد يراه، وذلك ردًا لجميلها، فقد احتجزت قطعة كبيرة من سمكة التونة له، وعندما أعلن غضبه من أفراد الشلة لأنهم لم يتركوا له شيئًا، رغم أنه من قام بالصيد، لاحظوا أيضًا أن فكيه في حركة دائمة، اكتشفوا سرّه وطالبوا بحقهم، لكل واحد منهم كبشة، امتنع قائلًا إن ما معه ملكه، وليس لأحد أن يفكر في مشاركته أو انتزاع شيء منه بأي حجة، مثل حق الشلة، أو المكان، أو الظرف، وكرر أن ما يملكه هو له، وليس لأحد غيره. حاولت الزوجة مقارعته الحجة بحجة، فأشارت إلى أنه أعطاها ما يمنعه عنهم، فرد بنبرة باترة: «أنا حر.. ثم لأنك لست مثلهم احتجزت قطعة سمك، مثلما كانت تفعل أمي».

يقال إن موقفه أثار دهشة واستنكار أفراد الشلة، ما عدا بلتاجي؛ حيث أعطى لهم ظهره وانشغل بأفكاره التي لا يعلم أحد ممن فوق القارب تفاصيلها.

أقر الجميع بأنهم في أزمة، وأن الكل سواسية دون أي تمييز، وما يملكه الفرد في مثل أزمتهم لا يعتد به؛ لأن الملكية في هذه الحالة تكون ملكية الكل لا الفرد، وعلى هذا أصدر سلامة هرموش تنبيهًا موجهًا إلى حمدي بهنس بتسليم كيس الفول السوداني، مع كيس

بذور دوار الشمس، إليه شخصيًا بصفته أكبر الموجودين، زائد اختيار الباقين له للتحدث نيابة عنهم، وهو سوف يوزع منهما بالعدل بينهم، كل واحد حصة متساوية. أقسم خليل حواس بأنه سوف يرمي ببهنس في ماء البحر، وسخر بهنس من تهديد صاحبه قائلًا: «مت يا حمار.. فعلك إن كنت تقدر يكون نافعًا، لو القارب يتحرك».

لم تنتهِ المسألة؛ إذ طلب صاحب القارب بإلحاح كمية من بذور دوار الشمس عوضًا عن عدم وجود تبغ يدخنه. في هذه الحالة تراجع حمدي بهنس عن موقفه، وبدأ يكبش حفنة لكل من على القارب، قال حواس: «هكذا، بديلًا عما كان ينتظرك من عنف».

توقف بهنس عن التوزيع، صائحًا: «هذا بمزاجي، ولن يجبرني عليه أحد يا سي شمشون».

كانت وجهة نظر هرموش، وأشهد الجميع عليها، هي كيف يطمئن لهذا الأناني؟ وكيف يمكن موازنة موقفه مع ما يدعي من ثورية العمل من أجل الجميع، تلك المقولة التي صدّع رؤوسنا بها، هنا في الأزمة الحقيقية على هذا القارب ظهر معدنه الأصلي، قشرة ذهب سرعان ما يجلوها أي احتكاك.

يقال إن كلمات سلامة ذهبت كأنها لم تكن، لانشغال الجميع بفتح يده لتلقي حبات الفول السوداني، وبذور دوار الشمس التي يوزعها بهنس، حتى هو نفسه عندما جاء الدور عليه فتح يديه الاثنتين، مما جعل بهنس يصيح فيه: «يد واحدة أيها الطماع».

فجأة نزل عليهم ضباب كثيف أحاط بهم، وانعدمت الرؤية، كان ضبابًا باردًا، وبرده لا يرحم، وصل إلى عظامهم. رأوا الرجل بلتاجي

وهو يتداخل في بعضه مرتعشًا، قال إنه لا يتحمل البرد، صرّح صاحب القارب بغرابة هذا الضباب، فطوال عمره في مزاولة مهنة نقل البضائع في هذا البحر لم يصادف مثل هذا الضباب. الرجال الثلاثة: حواس، وخريزة، وبهنس، تساندوا ملتصقين لينقلوا دفء أجسادهم لبعضهم البعض، هرموش تحرج من الالتصاق بزوجته، والزوجة أحكمت ذيل جلبابها حول سيقانها جيدًا، ظل زوجها وحده يعاني من البرد، أحاط كتفيه بذراعيه، وظل يردد: «ما هذا الرصراص يا ربى؟!»، وهو ينظر نحو مخيمر صاحب القارب الذي تلفع بشال صوفي، مغطيًا رأسه وأذنيه وفمه وأنفه جيدًا، ودّ لو يشاركه جزءًا من الشال، إلا أنه لم يتم دعوته، وأُهمل تمامًا.

سمعه سامي خريزة يرددها بشكل متواصل، وكان هو بين صاحبيه، فأخرج رأسه بميل، وصاح في اتجاهه: «الرصراص؟! ما هذا يا عمي المجمع اللغوي؟!».

«مع أننا في موسم الخماسين.. ماذا حدث للطقس؟!».

«أصابه ما أصاب كل شيء».

«هل نظل في هذا؟! كأن الزمن توقف فلا نرجع لماضينا، ولا نمضي نحو مستقبلنا!!».

«أخاف أن نموت في وضعنا هذا، ولا نُدفن بما يليق».

«يا عمي لا معنى لحديثك، فالموت ينهي كل شيء، فلا فائدة من اللائق أو غير اللائق».

حدث فجأة أن هاجمتهم وسط هذا الضباب البارد أسراب لا

تحصى من طيور البحر، نعيقها صم آذانهم، وهي كأنها مصابة بالعمى، لا تعرف اتجاهًا تذهب إليه، تروح ثم تعود، تصطدم بهم، تخدش بمناقيرها لحمهم بقسوة، تترك أثرًا ودمًا، لاحق هجوم الطيور هجوم جموع من أسماك لها أجنحة، وعيون مضيئة ضوءًا أصفر يبرق!!

يُحكى أن كل هذا الطير والسمك الطائر والضباب البارد انزاحت غمتهم رويدًا رويدًا، كان الطير والسمك بكثرتهم يذهبون نحو الفضاء ثم يتساقطون في مياه البحر، امتدت جثثهم الطافية إلى امتداد بعيد، جاءت الأمواج بجموعها تحلقت القارب، وغابت لمعة المياه حولهم، صاح بهنس إنها سوف تصيبهم بالمرض لو ظلت على وضعها، فلما استفسروا منه كيف يكون هذا؟ قال إنها سوف تكون رمة بعد يوم أو يومين، فكيف نتحمل جيفها؟!

يقال إنهم في البداية حاولوا إبعاد جثث الطيور النافقة والأسماك، ولكنهم فشلوا، أخذوا جميعهم يجدفون باليد، في محاولة ليبتعدوا بالقارب، أمروا مخيمر صاحب القارب بصرخات متوالية بتوجيه مقدمته، قالوا لو ذهبنا بعيدًا نحو الشرق، بعيدًا عن اتجاه الجزيرة والمرسى ربما تحرك القارب، ضحك مخيمر صاحب القارب؛ لأنه وحده كان يرى ما لم يرونه لانشغالهم بالتجديف، اندهشوا من ضحكاته واستنكروها، حينما رفعوا رؤوسهم رأوا كل شيء، كانت الجثث الطافية تغرق وكأن شيئًا ما يأخذها نحو القاع، ظلوا يرون نقصها حتى اختفت، وعادت مياه البحر تتلألأ.

«شوفنا العجب شوووووفنا».

بدأ بلتاجي يرفع صوته بموال ساخر.. كان يسخر من الأمنيات التي تولد ولا تتحقق!!

قال مخيمر وهو يكاد يبكي، بعد أن كان يضحك: «ما هذه اللعنة يا ربى؟».

صاح هرموش وقد تيقظت حواسه: اسمعوا يا سادة، لقد جاءت إليّ الآن.. كلمة اللعنة من فم صاحب القارب مخيمر جعلتني أراها كأنها مكتوبة، وأنا أقرؤها عليكم الآن.. اسمعوا، ربما تنفك: كان الزمن هو زمن اللعنات، نرى هجومها المباغت لكل تلك الممالك والبلدان حولنا، وما تفعله في سكانها، فلماذا تقصد دائمًا من حولنا، وتتركنا بلا تجربة مع الفزع والتخبط بين أذرع اللعنة؟!

عندما استطاع مجموعة من الناس الهروب، والنجاة من آخر لعنة، نزلت ببلدهم المقابلة لنا وهذا النهر يفصل بين أرضهم وأرضنا، تساءلوا: «لماذا تمتنع اللعنات عنكم؟!».

لاحظنا عيونهم الجاحظة، وحرنًا في إجابتهم، فالحقيقة لا نعرف لماذا تمتنع عنا اللعنات، عاشوا بيننا سنينًا، كانوا يتكلمون دائمًا، ونحن صامتون، في النهاية وفي يوم ما سمعنا أنفسنا نصيح بهذا السؤال: «وهل هناك كارثة أعمق وأشمل من عدم نزول لعنة علينا؟!».

أي أرض هذه نعيش فوقها، ولا تتزلزل يومًا فندخل في تجربة؟! أو تتفجر ببركان يرسل حممه الحارقة، وغباره يزهق الأنفاس أولًا، ثم يطمس الأجساد تحت ركامه؟!

أي سماء لا ترسل رياحًا صرصرًا عاتية؟! أو أمطارًا تنزل مدرارًا

تكسح البيوت وأعمدة الكهرباء والسيارات في طوفان هادر، لا يتوقف قبل ضياعنا الكامل؟!

في صباح يوم خائن حدث أن جاءت الأمطار -كنا فرحين بها في البداية- ظلت تسقط بلا رحمة، تكدرت أحوالنا، وتزلزلت من تحتنا الأرض، فتراقصت بيوتنا وكنا معها نرقص، صاحب ذلك انفجار البراكين مرة واحدة، في دائرة حزمت بلدنا، رحنا نحن مع اللعنات ركبنا ظهورها، كان هؤلاء اللاجئون الهاربون منها ببلادهم، هم الذين يقصون أخبار هذه اللعنة الأخيرة، وأنا أنقلها إليكم الآن، وهم يباهون بقدرتهم على مواجهة اللعنات لسابق خبرتهم بها!!

كانوا الآن يصفون أهل البلاد التي استضافتهم بأنهم أصحاب أمزجة بائسة تسكنهم، ويدعونها تتربى تحت أعينهم!!

ما أدلي به هرموش أغاظ الشلة، فهو يبدو كأنه -والعياذ بالله- يتلقى إشارات خارج حدود وعيهم القاصر، بينما هو وحده المختار الذي يرى عبر الحُجُب، بدأ الجميع يوازن بين هذه الصورة المثالية التي يحاول أن يبدو عليها، وحقيقته التي يعرفها جيدًا واحد قريب منه جدًا مثل حواس، كانت النتيجة في غير صالح هرموش، إلا أن بهنس قال إن التناقض موجود في الحياة، وفي الناس، وأن الحياة هي هكذا تعطي اكتمالها. خريزة أشاح بيده رافضًا هذا التخريج، وقال إن ما يعرفه إن هذا خير، وإن هذا شر، ولا يمكن مزجهما، صاح على بهنس أن يصمت ولا يتفلسف، ضحك بهنس قائلًا: «إنك مثالي يا خريزة، فالحياة ليست على مثال تحديدك الفج، فعينة هرموش، وأنا ومخيمر وحواس وبلتاجي أمامك تختلط داخلهم

كل التناقضات، وأكثرنا يعيش وله زوجة وأبناء وأصحاب وعلاقات مع بشر يشبهونه أو يختلفون عنه، الحياة أكثر مرونة من بعض الأشخاص».

[19] يُحكَى أنّ:

حديثهم انقطع فجأة بسبب هدير الأمواج، وتلاحقها في التلاعب بالقارب والغدر به، رفعت الأمواج القارب إلى أعلى من ثلاثين مترًا، ثم هبطت به إلى أسفل بنفس المقدار من الأمتار، شهق الجميع رعبًا، وتدحرج منهم من تدحرج، صرخ مخيمر بأن عليهم التشبث بالقارب بأي شكل من الأشكال، ربما توقع أن تكون هذه الأمواج خائنة، وربما من واقع خبرته، ولذلك نزل إلى جوف القارب، وترك الدفة، فلا معنى لوجوده متشبثًا بها، والقارب لا يمكن السيطرة عليه. في هذه اللحظة كاد خليل حواس أن يسقط، تبللت رأسه بماء البحر ولحق به خريزة ممسكًا بقدميه، ولم يتمكن من سحبه؛ لأن هجمات الأمواج زادت عنفًا، وعادت ترفع وتقلقل القارب فلا يستقر على وضع مريح، لم يُعرف لهذه الأمواج العاتية وجهة محددة؛ إذ إنها تأتي من اليمين مرة، ثم تخالف التوقع فتأتي من اليسار في المرة التالية، أو من الخلف أو من أمام، كان بهنس يقول: ما نحن فيه يشبه الميثولوجيا الإغريقية، فنازعه خريزة قائلًا إنه دائمًا يستعرض، يريد منا أن نفهم أنه يقرأ الكتب، لماذا لا تقول «ألف ليلة وليلة»، وبالذات رحلات السندباد البحري؟!

ضاعت كل كلمات بهنس وخريزة بتواصل الأمواج، هذه المرة شاهدوا قاع البحر، صعدت إليهم عدة من أسماك الأخطبوط، الواحدة منها في حجم طفل في العاشرة، سببت رعبًا فوق رعب بأذرعها الثمانية لكل منها، رأوا أنها مغطاة من باطنها بممصات قوية يستخدمها في الإمساك بفرائسه من أسماك والأحياء المائية الأخرى، وهنا فوق القارب غير المستقر تستطيع عن طريق هذه الممصات

أن تكون ثابتة في مكانها، تصوروا أنهم فرائس لهذه الأخطبوطات، وأنهم سوف تتمزق لحوم أجسادهم بمناقيرها، وسوف يؤكلون وهم أحياء، تذكروا شطحة هرموش عندما حكى عن مقابلة سرطان البحر لأخطبوط، وكان لا يعرفه، ولا يعرف خطر المواجهة، ولذلك تم للأخطبوط الغدر بالسرطان الساذج، هل تعتبرنا هذه الأخطبوطات الضخمة كائنات شبيهة بالسرطان، أي أننا صالحون للأكل؟!

في مشهد رعب حقيقي سعت إلى زوجة هرموش، ودخلت من أسفل فستانها، كأنها تريد الاختباء، الزوجة كانت شجاعة حيث رفست بأرجلها كثيرًا، مع طبقًا الصرخات واللعنات، فلم تُمكِّن أي أخطبوط من استكمال مسعاه، أخيرًا تجمعت سريعًا كأنها خسرت معركة، وتريد الهروب، تساقطت تباعًا نحو البحر وغابت في أعماقه.

عندما استقر القارب نتيجة انعدام تلك الأمواج، كان كل عضو في أجسادهم يشكو من الألم، بعضهم زحف ليعود إلى مكانه السابق، تنبهوا إلى أصوات نعيق شديد، فلما التفتوا إلى الجهة التي يأتي منها الصوت صدمتهم تلك الطيور العمياء مرة أخرى، والمشاهد تعاد مكرورة وكأنها تبدأ من جديد!!

«ألم تمت هذه الطيور وابتلعها البحر؟!».

«ذكرتني مع الاختلاف طبقًا بخرافة طائر العنقاء الذي يقوم من رماد احتراقه!!».

[20] يُحكَى أنّ:

يُحكَى أنّ ماذا؟

يُحكَى أنّهم بدؤوا يضمدون جراحهم التي سببتها مناقير الطيور العمياء، بمناديل معطرة كانت مع الزوجة. حاول صاحب القارب إطفاء الماتور توفيرًا للوقود، طالما أنه في الأصل لا يصل إلى الجزيرة، قوبل بعاصفة من الاحتجاج، فأسرع بجعله يعمل.

حاول حمدي بهنس غسل يده المجروحة جرحًا طوليًا في ظاهرها بماء البحر، عندما وضعها في الماء شعر بلسعة، حين التفت لمكان يده في الماء رأى ماء البحر يتلون بلون الدم، بدأ الأمر بخط في سمك فتلة يخرج من الجرح، ثم اتسع بسرعة لينفجر شلالًا هادرًا، صرخ محاولا جذب يده، زاد صراخه حدة وعلوًا؛ إذ إن يده استعصت عليه، فلم تلبّ، ظلت في ماء البحر، وظل تدفق شلال الدم، في ثوانٍ كان البحر حول القارب بحر دم، وتلون الأفق بلونه، ضحك بهنس، كان بهنس يضحك بينما من حوله يشعرون بفزع عظيم، قالوا إذا لم يرفع يده من البحر فسيصفي دمه ويموت، صاح بهنس: «اتركوا يدي مكانها.. أشعر أن داخلي بحر، أمواجه تهدهد روحي.. يا سلاااااام!!».

أشار إلى مجموعة من الدرافيل تقترب من القارب، قال إنه يستطيع تبادل الحديث معها الآن، فالصلة بينه وبين كائنات البحر تحققت بامتزاج دمه بماء البحر. مخيمر صاحب القارب نبه عليهم، إن لم يرفعوا يد صاحبهم فسوف ينهشها قرش، فالدم يشمه القرش من على بعد فيوقظ فيه طبيعة الافتراس، أؤكد لكم سوف يحضر

القرش، رفض بهنس اقتراح الكبير الشاطح هرموش بأن يكون خريزة على يمينه، وحواس على يساره، بحيث يقبض كل منهما على الذراع كل من مكانه، ويجذبان لأعلى حتى تخرج اليد سليمة معافاة.

يُحكَى أنّ الزوجة قامت من مكانها، أرادت أن ترى ما يحدث بعينيها، تقدمت من مكان بهنس، انحنت تنظر من على حرف جانب القارب، وجدت اليد في الماء تشع كأنها من زجاج شفاف، وتشريحها من عضلات وعظم وشرايين وأوردة ظاهرة، لحظة رؤيتها شهقت، وانتابها إشفاق عليه، خافت أن تبور يده، وتنسلخ عن ذراعه، دمعت عيناها، سقطت دمعة في ماء البحر، صرخوا لأن الماء حولهم عقب سقوط دمعتها تحول إلى أتون تغلي مياهه وتفور، لفحتهم سخونة، ونضحت أجسادهم بالعرق، وثقلت أنفاسهم، صرخ هرموش في زوجته أن ترجع إلى مكانها الأول، فإن ما تفعله لا يصح أن تفعله، فهو يعد عيبًا وسوف يحاسبها، ولن تفلت من العقاب، خليل حواس لم يعجبه التهديد، وصاح عليه أن يتعقل، فالزوجة لم تأتِ فعلًا معيبًا، بل هو الذي فعل، بإسباغ صفة العيب على موقف إنساني ليس خلفه إلا نفس طيبة، بلع ريقه ثم أكمل: «اطرح رأيًا إيجابيًا يا كبير، وإلا فاصمت.. أقول لك: هات واحدة من شطحاتك».

قطب هرموش جبينه، وهو يقول إنه لا يحضره الآن شطح ولا نطح، وعلى حواس أن يصمت، ولا يتدخل بينه وبين أهل بيته.

انتهى فحيح الماء، وعادت مياه البحر مياه بحر، بينما أحاطت الدرافيل بالقارب.

صاح بهنس قائلًا إنهم عن طريق هذه الدرافيل سوف يصلون إلى الجزيرة، هذا هو الحل، في هذه اللحظة أخرج يده من ماء البحر، ورآها الجميع سليمة لا عطب بها، إلا هذا الخدش في ظاهر راحتها.

صاح خريزة عقب قوله: «كيف يا فصيح؟! هل تجر القارب بواسطة حبل؟! ما هذا الجنون؟! يا أخي تعقل».

أعاد بهنس التأكيد أنهم سيصلون إلى الجزيرة ركوبًا على ظهر الدرافيل، صاحوا كلهم: كيف؟!

يقال إن بهنس طلب من كل واحد منهم ركوب ظهر درفيل ليذهب به إلى الجزيرة، قال: لا تخافوا، يمكن أن تجلس مبعدًا ساقيك وفخذيك كأنك تركب حمارًا.

صاحوا في نفس واحد: «لتنتهِ من جنونك بهنس».

علّق خريزة قائلًا: نركب ظهور الدرافيل لنستكمل شطحتنا الخرافية، هكذا يكون القول.

واصل بهنس كأنه لم يسمع ما قاله زميله، والسخرية الظاهرة في قوله: إذن أنتم لا تصدقون؟ أم خائفون؟ لن يجيب أحد منكم بصدق، وإن تجرأ أحد فسوف يماطل في إجابته، ولن نصل لشيء، انظروا إليّ.

تخطى أجساد الجالسين أو النائمين بباطن القارب، وصل إلى خلفيته، حيث يجلس مخيمر، ومال بجذعه، يربت على رأس درفيل، ثم تطلع خلفه فوجدهم قاموا نصف قومة بحيث وصلت صدورهم إلى حافة القارب، عاد يربت على رأس الدرفيل كأنه يقول إن كل

شيء سهل ولا خوف منه.

قيل إن كل من على القارب شاهد كيف وقف حمدي بهنس فوق درفيل أولًا، ثم نزل بمقعدته مفسحًا بين ساقيه وجلس على الظهر، مشيرًا بذراعه نحو الجزيرة، سبح الدرفيل فورًا نحوها، رأوه هناك والدرفيل يدور به حول الجزيرة، أول من تشجع ليدخل التجربة هو خريزة، فلما نجح مع أحد الدرافيل، أقبل الجميع حتى الزوجة على ركوب كل منهم درفيله الخاص، أمسكت بيد هرموش زوجها، وكانت تصيح ضاحكة، لم يفعل مثلهم كل من مخيمر صاحب القارب وبلتاجي، الاثنان رفضا أن يشاركا، قال مخيمر إنه باقٍ مع قاربه، أما بلتاجي فقال إن لا رغبة لديه في ركوب درفيل ولا ركوب فيل، إنه باقٍ أيضًا.

يُحكَى أنَّ:

اقتراب الدرافيل من الجزيرة، جعل معالمها تظهر لهم، من سبق أن صعدها يتذكر تضاريسها، ومن لم يسبق له صعودها منّى النفس بقرب الصعود، حدث من أحدهم أنه قال إن ركوب الدرافيل أمر سهل، لا خوف منه ولا مجازفة يعقبها أمر مخيف، هي رشيقة في سباحتها، وتحدّث بعضها عبر صفير مميز. عندما وصلت إلى قرب الجزيرة دارت حولها مرتين، ولكنها لم تقترب من يابستها، كانت المسافة ما زالت بعيدة، قدرها حواس -وكان متحمسًا جدًا- بنحو نصف الكيلو متر، صاحوا على بهنس: «استيقظ يا أبا الأفكار.. لماذا توقفت الدرافيل؟!».

يقال إن محاولاتهم لدفعها نحو الاقتراب من الجزيرة فشلت،

وظلت الدرافيل تدور حول الجزيرة ولا تقترب منها، ظلوا هكذا لمدة ساعة كاملة، أصابهم اليأس، وتعجبوا من أمرها، كأن على يابسة الجزيرة من سوف يؤذيها!!

شعر بهنس أن الشلة تحمّله أسباب هذا الفشل، فصاح بغضب: «وهل أنا وهي أقرباء أو أصدقاء، أو هي تحت ولايتي؟! ماذا بكم؟!».

يقال إن الدرافيل قد شعرت بالعتاب الموجه إليها، فقامت بالقفز فجأة إلى أعلى ثم الغطس في الماء كأنها تحمم أفراد الشلة عامدة، بالطبع كان أكثر من أثار ضجة هي الزوجة لتبللها وخاصة شعرها، وذهاب مكونات تجميلها التي أذابها ماء البحر. كانت العودة إلى القارب قرارًا جماعيًا، حتى أن خريزة قال بإحباط إنه يبدو ألا نصيب لهم في صعود هذه الجزيرة.

فهمت الدرافيل فاستدارت ببراعة في تشكيل متقن، وبدأت السباحة نحو القارب.

عندما صعدوا إلى القارب، قالت الزوجة: «لم نحصل إلا على البلل!!».

يقال إن مخيمر صاحب القارب أراد معرفة تفاصيل أكثر، ولكن الجميع شخطوا فيه أن كل شيء بيّن وظاهر، والثرثرة فيه مضيعة ولا فائدة، سألوه: ألم يشاهد ما حدث بعينيه؟ لماذا يسأل إذن؟!

[21] يُحكَى أنّ:

هرموش إلى الآن لم يتحدث مع أحد عن كنز أرض الرمال التي قامت الرحلة من أجلها، ظل يلعب دور الشاطح، وكبير الشلة بصورة أقل، فلم يكن مهتمًا بهذا الدور حتى الآن، زميله وصديقه وأول من شاركه السر خليل حواس، مع ما فيه من خفة، إلا أنه أيضًا لم يفتح سكة في اتجاه الحديث عما ينتظرهم إذا صعدوا الجزيرة. اتفق الاثنان دون إعلان على تأجيل الحديث، أو لا حديث من الأصل، واستخدام حيلة المفاجأة مع البقية، حيث في هذه الحالة يمكن أن تتهاوى أي اعتراضات؛ سواء كانت أخلاقية أو خلاف ذلك. حاول حواس التحدث مع بهنس، فقال خبرًا غطاه بالافتراض، وليس اليقين، قال له: لو فُرض أن وجدنا كنزًا في رمال هذه الجزيرة، ماذا نفعل؟ أجابه بهنس دون تردد أو تأخير بحجة التفكير: «نعود ونبلغ السلطات عن المكان».

صمت حواس عن مواصلة أي حديث، فلما التفت وجد هرموش في وجهه، فأسرع يبتعد بالصعود إلى جانب مخيمر صاحب القارب؛ لأنه قدّر ما في داخل صاحبه من ضيق وغيظ ظاهر وبيّن على وجهه.

كان ضائقًا، لم يجلس مكانه بجانب زوجته؛ بل ظل يمشي في حيز ضيق خطوتين يمينًا يتبعهما بخطوتين يسارًا، ثم يتوقف ناظرًا نحو الجزيرة وهو ينفخ غيظًا. أثناء توقفه يتساءل، ولا ينتظر إجابة: حكاية سمك الدرافيل حكاية لن يصدقها أحد، وهي غير مصدقة، ما هذا؟! درافيل ماذا؟! وركبنا ظهورها؟! إذا تحدثت بها لأحد فسينظر

إليك على أنك كذوب مستهتر، لا تجيد سبك الحكايات، لكن كان أملي صعود الجزيرة.. كان أملي صعود الجزيرة.. درافيل يركبها بشر؟! هل هذا سيرك؟!

سمع حواس يرد عليه، وهو يقصد إغاظته، لعبة يلعبها معه دائمًا، صاح: يا أخي أنت كنت تركب ظهر درفيل، وكنت أراك فرحًا كفرح طفل بلعبة جديدة، ثم من قال لك أن تحكي هذه التفصيلة طالما أنك تتوقع من الناس عدم تصديقها؟!

يقال إن بلتاجي من مكمنه علّق على كلام هرموش، ولكنه في الحقيقة لم يوجه حديثه إلى أحد ممن على القارب، كأنه يتحدث إلى نفسه: «كل شيء جائز.. طيب ما المحسوس لنا فيه حاجات لا يمكن تحصل وتحصل، يعني الأحلام مثلها مثل الحاصل لنا ونحن نتصرف في الحياة عادي».

خليل حواس نزل من مكانه بجانب مخيمر، وفي ثلاث خطوات واسعة كان عند بلتاجي، وأراد أن يزيد من إغاظته لهرموش، فقال: «تصور يا صعيدي أن كلامك صحيح، وخير دليل ما يحدث لنا مع القارب والجزيرة، خليط طريف من المعقول لنا كبشر واللامعقول المعقول لنا أيضًا كبشر».

يُحكَى أنّ:

بلتاجي قد استعمل سنارة بهنس في غيابه، أثناء ركوبه للدرفيل، واستطاع أن يجمع حصيلة من الأسماك المختلفة النوع والحجم، أكثر مما كان بهنس يفعل، وهو الآن أمام الموقد الصفيح يطلب حطبًا، كان بهنس وزّع على الجميع كبشة من الفول السوداني،

مع كبشة من دوار الشمس، وقال إنها حلاوة نزهة ركوب ظهور الدرافيل.

أما بلتاجي فقد زحف قرب موقد الصفيح، وطلب حطبًا للمرة الثانية بلهجة بها حدة، فردّ عليه مخيمر صاحب القارب بنفاد صبر: «انتهى الحطب يا ولد خالو.. نقول ثور تقول احلبوه؟!».

يُحكَى أنّ بلتاجي أسرع مباشرة لنزع لوح من خشب بطن القارب، شهق الجميع مع حركته، ولكنهم حمدوا الله أن هناك طبقة أخرى هي المتصلة بماء البحر مباشرة، صاحب القارب نزل بقدم واحدة من سطحه إلى جوفه، وهو في كامل الغضب، في هذه اللحظة استقام بلتاجي واقفًا وصاح بحدة: «لو نزلت بقدمك الثانية اقرأ على روحك الفاتحة».

يُحكَى أنّ الجميع تصوروا أن التهديد مجرد تهديد حنك، وتنتهي الأمور، إلا أنهم فوجئوا ببلتاجي يُخرج من صدره مسدسًا يصوبه نحو مخيمر صاحب القارب، عرفوا الآن أن اسمه بالكامل «مخيمر ولد دهشوري العجوة» حيث ناداه بلتاجي بهذا الترتيب، بالفعل لم يكن تهديدًا، إذ مع نزول القدم الثانية انطلقت رصاصة من المسدس طوحت مخيمر ولد دهشوري للخلف؛ حيث استلقى جسده على سطح القارب. أثناء الصدمة سمع الجميع كلمات بلتاجي، وهو يطلق وبعد أن أطلق، انكشف أمر لماذا تبعهم، وصعد معهم القارب، كأنه واحد منهم، فبعد عشرين سنة استطاع أن يصل إلى من قتل أباه وأخذ بثأره، أضاف أنه مستعد لتحمل أي تبعات، فهي كلها تهون أمام تنفيذه لوعده الذي قطعه أمام عائلته وأمه.

يقال إنه توسع في حديثه، وكأنه كلما تحدث عن ثأره وما فعله وسوف يفعله يريحه، واصل قائلًا إنه يأسف للجماعة ويعتذر؛ لأنه أقدم على قتل المجرم أمامهم، وهو كان رتب أن يكون القتل فوق الجزيرة، وكان سوف يحفر ويدفنه، وأنه كان سيأخذ القارب ويعود وحده، أحاط الجميع بنظرة، قال إنه الآن معهم وهم معه. اغتاظ بهنس فصاح بتهور ودون أي تحرز، وهو يشير إلى بقية الشلة: «يا خائن العيش والملح، كنت تريد تركنا فوق الجزيرة؟!».

أخذ بلتاجي يضرب كف يده الخالية بالمسدس، ولم يجب، أشعل النار في لوح الخشب، واستعد لشي الأسماك.

يُحكَى أنّ.. يُحكَى أنّ ماذا؟

يُحكَى أنّ:

في هذه اللحظة حطّ زوج من طير ضخم الجثة، احتاروا في تحديد نوعه وفصيلته، تبادل الطائران الزحف بأقدامهما ذات المخالب شبيهة الخناجر نحو جثة مخيمر، صاح حواس بأنهما ينويان نهش الجثة، صرخت الزوجة، يبدو أنها قد مرت أمام أعينها تلك الصورة عن طيور في الغابة الأفريقية، وهي تنهش لحم فريسة، صاح هرموش مهيبًا بالجميع التكاتف: «وهل ننتظر حتى يبدأ هذان الطائران البشعان الوليمة؟! هيا قوموا بطردهما».

ما هذا؟! هل فهم الطائران تحريض الرجل لبقية الشلة؟!

كان الناظر نحوهما لا يجد إلا وجهًا صنع من تجهم وسطه منقار معكوف، يستطيع نزع اللحم وتمزيقه فورًا، طار واحد من الاثنين

هاجم هرموش، حوّم فوق رأسه مباشرة، حتى أنه تلقى عدة ضربات من الأجنحة، كانت مجرد تهويشة تلزمه إطباق شفتيه وابتلاع لسانه. عاد الطائر إلى قرب وليفه، صرخا صرخة رعب، ثم صعدا فوق الجثة، صرخ بهنس في بلتاجي أن يطلق من مسدسه طلقة تجعلهما يفران، ضحك بلتاجي ساخرًا، وقال إنه سيستمتع بأروع مشهد والطائران يأكلان أحشاء من قتل أباه وهو بعد في العاشرة من عمره، حاول بهنس معه، وذكّره بإنسانية المقتول، المشترك الأعظم بينه وبينه، وبين من على القارب، وبين بقية الناس على كوكب الأرض، أكد الجميع على صحة حديثه، وزادوا محاولة ترقيق قلب بلتاي، إلا أنه لم يرد أن يفعل شيئًا إلا مراقبة الأسماك التي يقوم بشيها، وبين مراقبة الطائرين منتظرًا ما سوف يفعلانه بجثة مخيمر صاحب القارب، كان قد نزع لوحًا ثانيًا من خشب بطن القارب بعد إطلاق الرصاصة، عبّ طويلا كمية من الهواء اتسع عقبها صدره، ثم أخذ يخرج كمية الهواء بتثاؤب عميق.

[22] يُحكَى أنّ.. يُحكَى أنّ ماذا؟

يُحكَى أنّ الزوجة نهضت من مكانها، مقتربة من بلتاجي، فلما صارت على مسافة منه تستطيع صفعه بشكل متتالٍ وباليدين والراحتين معًا عدة مرات، تصل إلى أكثر من أصابع اليد الواحدة دون خوف من مسدسه، أو قلبه القاسي، زادت مع الصفع كذا زغدة في ضلوعه!!

فعلت كل هذا في الذي لن يتورع عن تسديد رصاصة نحو قلبها هي، فما فعلته يعد في عرف مثل بلتاجي شيئًا لا يمحوه إلا الدم، مثله مثل ثأره، كل تلك الأفكار مرت كالبرق في رأس زوجها هرموش الذي تأوه رافعًا يديه لأعلى وممسكًا رأسه بهما، وهو على حافة البكاء، بينما الآخرون ينظرون فاتحي الأفواه، ترتسم على وجوههم الدهشة ممزوجة بكرب عظيم!!

يقال إن الشيئين حدثا معًا في نفس الوقت، توقف الطائران البشعان بعد أن قفزا على صدر جثة مخيمر صاحب القارب، ومزقا ملابسه بمناقيرهما إيذانًا ببدء تمزيق لحمه وابتلاعه، صرخا فجأة صرخة رعب، ثم طارا بعيدًا عن القارب، حتى اختفيا تمامًا، هذا عن الشيء الأول، أما الشيء الثاني فهو رد فعل بلتاجي على ما فعلته الزوجة به، لم يرد صفعاتها بصفعات مماثلة، أو أطلق عليها رصاصة من مسدسه، بل أحنى رأسه، وقال: شكرًا يا ست.. نحن لا نضرب أي حُرمة، يقصد أي امرأة، فعادت إلى جوار زوجها الذي وجدته يرتعد!!

هل يحمل القارب الذي يسير نحو جزيرة لا يصلها جثة؟!

ماذا سيفعلون بها؟

هل يتم تغسيلها وتكفينها بقماش القلع، بعده يتم قذفها إلى البحر، بعد طبقًا الصلاة عليها صلاة الميت؟!

كان خليل حواس هو من أمسك بعصا الدفة متوجهًا بالقارب إلى الجزيرة، حتى أن خريزة قال له ساخرًا: «إذا وصلت نبهني يا ريس البحور».

قال قائل منهم إنهم لا يتحملون وجود جثة على قارب هم موجودون في نفس الوقت معها، ويتم التصرف فيها دون معرفة السلطات، في حال تسليمها للبحر يمكن أن توجه إليهم جميعًا جريمة القتل بالتضامن لكل من هو فوق القارب، قال قائل آخر: «وهل يمكننا ترك الجثة حتى تتعفن؟! لن نستطيع تحمل رائحتها ولا مشهد الدود ينهش فيها!!».

صاح بلتاجي: «سأسلم نفسي وأعترف.. لا دخل لكم بجأري».

في هذه اللحظة ومع آخر كلمة قيلت رأوا الجثة تنهض واضعة راحة يدها تسندها راحة يدها الأخرى فوق جرح ينزف الدم ولا يتوقف، عندها فهموا لماذا انزعج الطائران، قال بهنس إن الطائرين لا يقربان من جثة ما زالت حية، وهذا ما اكتشفاه وهما فوق صدر مخيمر صاحب القارب، علّق خريزة قائلًا إن هذه الطبيعة تحمي الكائنات من أن تنقض عليها هذه الطيور وهي ما زالت تنعم بالحياة، تصوروا لو كانت تفعل؟!

[23] يُحكَى أنّ:

عقب محاولة القتل جفّ معين سلامة هرموش، ولم يعد يشطح، وظهر كمن يريد أن يمنحه أحد طاقية الإخفاء حتى لا يظهر لأحد، فالوضع انقلب لغير صالحه أو صالح الشلة، كان يرى أفرادها وهم يفقدون التماسك، وهو العامل المهم الذي تلمحه عندما تتأمل أي شلة، كما أن عدم وصول القارب إلى جزيرته الميمونة أصاب روحه بإحباط كبير، وبدأ ينعى على نفسه أنه لم يرضخ لما أشار عليه فعله زميله وصديقه خليل حواس، منذ انقضاء الشهر الأول على اكتشافهما، واقتراحه الذهاب إلى كنزهما، والحصول على جائزتهما، وصل به الأمر أن يقول: يا ليتني وافقت، وبدأ يتهم نفسه بأنه عديم الحكمة، وأن من حوله موهومون بحكمته، واستنارة عقله وتفكيره، زاد من حدة هذه الحالة محاولة القتل التي حدثت تحت أنوفهم، ثم تدهور وضعهم جميعًا لسيطرة من يملك المسدس، صار بلتاجي هو صاحب السلطة المطلقة على القارب، انقلب بلتاجي لشخص آخر، يقال إنه ابتسم ابتسامة صفراء حين رأى صاحب القارب مخيمر ولد دهشوري حيًا لم تقتله طلقته، وأرجع أن السبب في عدم إحكام التهديف أن الشمس كانت في عينه فلم يُحكم، ولكن إصابة ولد الدهشوري، وعدم القضاء عليه يجعل ثأره له معنى وأثر يعيش به العمر الباقي من عمره، فقد حقق ثأره مرتين في نفس الشخص، في المرة القادمة ستكون الرصاصة ناجعة، وحدد مكانها ستكون في القلب مباشرة، بعد مدة غيّر المكان إلى الرأس أضمن، وبعدها أخذه التردد بين القلب والرأس، وقت يقول إن الرصاصة ستستقر في القلب، ووقت آخر يختار الرأس، في البداية سمح لزوجة الأستاذ

سلامة بمعالجة جرح مخيمر ولد دهشوري، قائلًا: «أريده حيًا».

قالت الزوجة منزعجة إن الحياة والموت بيد الخالق، وما هي إلا أداة لمحاولة علاج، فإذا كان الجرح غير مميت فلن يمت، وإن كان الجرح مميتًا فلن تنفع مداواتها، صرخ بلتاجي منتفض الجسد: «انتهي يا حرمة.. نفذي ما أمرتك به».

استخدمت الزوجة نفس المناديل المعطرة في تطبيب الجرح، ولكنها أخطأت حين طلبت من زوجها أن يضع شيئًا من الزجاجة التي يحملها معه في جيب سترته الخفيفة التي صمم على ارتدائها رغم أنها لفتت نظره إلى أن الطقس صيف حار، حاول أن يسكتها بالنظرة الغاضبة، فلم تنفع لتصميم الزوجة، وإعلانها أن النبيذ في هذه الزجاجة يحتوي على الكحول، ويمكن استخدامه في تنظيف جرح الرصاصة، أما عن الرصاصة نفسها، فتحتاج إلى إخراج، وإلا أصيب مخيمر بتسمم، رأى وسمع كل الموجودين كيف نظروا في وجوه بعضهم البعض بدهشة وعدم تصديق، وربما بعض الشماتة لفضحه، هذا البخيل المقتر، صاح خريزة بخبث: «هل هذه الزجاجة هي التي كانت تمدك بالشطح يا هرموش؟! آه يا حويط!!».

ما أمسك لسانه أيضًا في هذه اللحظة، تقدم بلتاجي ليصرخ في وجهه آمرًا أن يعطي زوجته زجاجة النبيذ حالًا، ثم أمر الزوجة أن تسلمها له بعد استخدام الكمية التي تريدها، ولكن عليها ألا تبذر في هدر السائل.

عرف الجميع أن الزجاجة صارت في قبضة بلتاجي، وعاد خريزة يسخر: «ضاعت أيام الشطح والحكمة يا إخوان».

شخط فيه بلتاجي أن يخرس، ويختار مكانًا في القارب لا يغادره، فلما عصى أمره، ولوّح بذراعيه، ولم يجلس، تلقى ضربة على رأسه بيد المسدس، وسال دمه من أثر الجرح الذي أصيب به، أعطته الزوجة منديلا معطرًا ليضعه فوق الجرح لكتمه، قالت له إن عليه الضغط حتى تتكون خثرة توقف سيلان دمه، كان أفراد الشلة الباقون صامتين أثناء ما حدث، يتبادلون النظرات فقط، وهم في ترقب يشوبه حذر أمام هذه التحولات.

أعلن بلتاجي موافقته طبعًا على معالجة مخيمر ليعيش، حتى يمكنه تنفيذ ثأره فيه، منهم من أظهر دهشته عقب معرفته أن هرموش طالما اصطحب الزجاجة معه في هذه الرحلة، فهو بالتأكيد كان ينوي شربها، فيا ترى هل شربه لها كان سيكون سريًا؟ أي في خفية عن بقية الشلة، أم أنه كان سيجعل الزجاجة تدور بين الصحاب؟

يقال إن هرموش لم يقع في إحراج لانكشاف أمره، وَوَضفُهُ بالشَّرِّيب المُنفَرِد، ولكنه شعر بالضيق لانكشاف أمره من الأصل، صديقه حواس المقرب لم يعرف عنه مداومته على شرب الخمر، كما أنه يبدو له من خلال المعاشرة والمصاحبة رجلًا تقيًا. قطعت الزوجة تلك الأفكار وغيرها بطلب سكين، تكون شفرتها حادة، سألها سائل هل لديها خبرة؟ أجابت بأنها كانت ممرضة إلى أن أجبرها هرموش على الاستقالة بحجة تربية الأولاد والتفرغ لشئون البيت، كان غريبًا أيضًا أن يخرج بهنس رجل المعتقدات والقراءات والجدل مطواة فخمة من جيب بنطاله الجينز، أخذتها الزوجة ثم طلبت منه أن يفتح سلاحها، فهي جربت ولم تفلح، قال إن هذا سهل، وأخذها منها، ونتر

يده الممسكة بها فخرج سلاحها، صبت الزوجة بعض سائل الزجاجة التي أخذتها من زوجها على سلاحها، بعد أن قال لها: «أكان لازمًا أن تنسحبي من لسانك؟!».

لم تهتم بالرد عليه، وأمرت بهنس القريب منها أن يصب بعض السائل فوق الجرح، وطلبت من حواس وخريزة إمساك صاحب القارب وتثبيته فلا يتحرك، بالفعل تمت كل التدابير اللازمة، وبانت نتيجة أوامرها حين أسقط بهنس قطرات من النبيذ المحتوي على الكحول على الجرح، صرخ مخيمر ورفس بساقيه، وحاول القيام من استلقائه، ثبته الصاحبان جيدًا، وبدأت الزوجة العمل بعد تطهير سلاح المطواة للمرة الثانية بسائل النبيذ، لم يدارِ بلتاجي المسدس، ظل ممسكًا به على الدوام، وكان خفيف النوم، إذا مر بجانبه ظلٌّ نهارًا فتح عينيه على الفور، وإذا تنفس بالقرب منه شخص فز من نومه ليلًا سائلًا: من أنت؟

يُحكَى أنَّ صرخات مخيمر لم تمنع أثناء عملية إخراج الرصاصة أن يأمر بلتاجي فرد الشلة حواس بأخذ سنارة بهنس الذي يحل محله في إمساك القاتل المقتول، هكذا قال، واستعمالها في صيد بعض الأسماك، عندما رأى ما ظنه تباطؤًا، صرخ: «نفذ ما أمرتك به حالًا يا لكع» وأنهى جملته بوصفه له بابن الفرطوس!!

وقف خليل حواس على سطح القارب مطلًا على ما يجرى، بعد أن غيب السنارة في ماء البحر، شخط فيه بلتاجي أن ينتبه لما كُلِّف به، ولا يشتت أنظاره وتفكيره، ثم صاح ضاحكًا بعد أن خطرت على ذهنه فكرة: «قل للسمك تعال».

استدار حواس برأسه نحو البحر فعلًا، وهز عصا السنارة، رجع بلتاجي يصيح بغضب، حتى أنه أطلق رصاصة في الهواء: «ألم أقل لك أن تقول للسمك تعال؟».

التفت إليه برأسه فوجد فوهة المسدس يخرج منها خيط رفيع من الدخان، رفع صوته على الفور، حاول أن ينغِّمه: «تعال يا سمك.. تعالالالالا.. وتعالالالالا تعالالالا يا سمك».

يقال إنه رغم ما هم فيه إلا أنهم ارتفعت ضحكاتهم بسبب غناء خليل حواس، حتى بلتاجي ضحك، ولكنه قضم ضحكته، ولم يكملها.

وجاء السمك فعلًا، نزع بلتاجي لوح خشب من الأرضية العلوية لبطن القارب استعدادًا لبدء شي السمك، ووجد أن اللوح الواحد لن يكفي فنزع لوحًا آخر!!

مع الصرخة الأخيرة استطاعت الزوجة استخراج الرصاصة، وتضميد الجرح بربطه بشال خفيف كانت تحمله في حقيبتها، لفّته حول جسمه وعقدته، ثم طلبت من زميلَي الشلة حمله ووضعه في بطن القارب، بعيدًا عن السطح حيث كان، حتى لا يسقط في البحر لو تقلب في نومه، أو تأرجح القارب بفعل الموج.

يقال إن الجبروت نما وأينع داخل بلتاجي، فذهب بعيدًا في غيه، طلب الزواج من الزوجة فورًا على القارب، هكذا بدون مراعاة أنها متزوجة، قال إن على هرموش تطليقها، وإن لم يفعل فتكون رصاصة واحدة في رأسه تزيحه، تصدى له بهنس وقال له إن جبروته لا يعني أن يطلب طلبًا غريبًا مثل ما طلب، وحتى لو تم، فعليه شرعًا ألا يتزوجها في الحال، فلها عدة مدتها ثلاثة أشهر، قال

بلتاجي: «لا.. أريدها الآن».

«لا ينفع، وإلا كنا من الكافرين».

«مالك أنت يا مقصوف الرقبة.. كيف تعرف وأنت لا شيخ ولا ولي؟!».

صرخت الزوجة عندما توجه بلتاجي لسلامة هرموش، رافعًا المسدس في وجهه: «طلقها.. قلت لك طلقها».

نظر إليه هرموش بقرف، وصاح: «أنت جاهل وعبيط، من أي جبلة أنت؟!».

لا أحد يعرف فعل بلتاجي بعد سماعه التعريض به، وماذا كان سيفعل لولا تدخل بهنس بينه وبين هرموش، وتحدث بكلمات سريعة طالبًا من بلتاجي أن يفهم، وما حاول أن يوضحه له ليس اجتهادًا، ولكنه الدين، انطلقت رصاصة من المسدس مرت بجانب قدم بهنس مباشرة حتى أنها أزالت جزءًا من نعل الكوتشي الذي يرتديه في قدميه، صُدم الجميع، همس حواس بأذن خريزة: «وقعنا في يد غشيم في يده مسدس، يتسلطن علينا، شفت الزمن؟!».

يبدو أن فكرة تطليق الزوجة من أجل أن يتزوجها رغبة لم تكن عميقة في قلبه، وأن معارضتها استندت إلى الدين، فتراجعت الرغبة، وهو يلتفت مبتعدًا خطف زجاجة النبيذ من جيب سترة هرموش، ومضى إلى مقدمة القارب بعيدًا عنهم، ولكنه قبل أن يفعل وجد خريزة وحواس يتهامسان بشيء ما، صرخ نحوهما وأمرهما بالوقوف على سطح القارب على قدم واحدة، مع رفع ذراعي كل

منهما لأعلى، برطم حواس: «هل نحن في حصة تمارين الصباح؟!».

انطلقت الرصاصة الثالثة، اخترقت خشب القارب، فوق خط الطفو بخمسة من السنتيمترات، ومع ذلك جرى بهنس مكومًا كيسًا ممن حملوه وفرغ مما كان فيه من طعام، وبدأ يحشره في الثقب حتى لو مال القارب لا تدخل المياه منه، عندما انتهى نظر إلى الجميع، وقال: «نحن في خطر».

أراد أن يكمل جملته بأن معهم مَن في يده آلة قتل، وهو يبدو مضطربًا، لا يمكن التنبؤ بأفعاله، لذا وجب علينا كجماعة أن نضع حدًا لجبروت هذا المأفون، كان يمكنه أن يقول كل هذا؛ لأنه يملك طبعًا فيه بعض التهور، ما منعه هو صعود كل من حواس وخريزة إلى سطح القارب عند يد الدفة والماتور، وكانا يحاولان الوقوف على قدم واحدة مع رفع الذراعين، إلا أنهما لم يتمكنا من فعل هذا، وكانا دائمًا ما يختل توازنهما، خاصة وأن الأمواج تلطُ جوانب القارب، فتجعله غير مستقر، كانا رغم هذا مع تكرار محاولاتهما يضحكان كأنهما يلعبان لعبة مرحة!!

صمت بلتاجي وبدا هادئًا، حينما نزلا إلى جوف القارب، وما زالا يضحكان، ولم يفعل شيئًا، يبدو أنه صرف النظر عن عقابهما، ولكن ظل المسدس على حجره، وفي متناول يده.

استحلى لهرموش أن يشطح، جاءته لطسة الشطح، فشطح بعلو صوته: يوم أن سعى الغراب إلى تجمع الفراخ، مختلطًا بها كأنه واحد منها، معتمدًا على اعتقاد آمن به من أن الفراخ كائنات غبية، لا تهش ولا تنش، وربما نظرها أيضًا ضعيف، إلا أنه احتال بنفخ نفسه، نافشًا

ريش جناحيه على جسده ليخفي نحافته، كان دافعه لفعل هذا هو طعامها الذي شم فيه سمكًا مطبوخًا مضافًا إلى حبوب، وفهم أن أصحاب الفراخ يعلفونها لتصير وجبات سمينة لهم، وحمد الله على أنه ليس كائنًا غبيًا، فجأة زهد البحث في الحقول عن دود أو السطو على أشجار إحدى الجنائن عندما تكون معمرة، الطعام أمامه بلا تعب أو مشقة، لماذا يذهب بعيدًا؟! لو ذهب بعيدًا يكون أحمق!!

فلما امتلأ وتجشأ هنيئًا مريئًا، اغتر أكثر، قال: «يمكنني إضافة البله إلى الغباء في وصفي للفراخ».

لم ينعم بجنته الموهومة طويلًا، ففي اللحظة التي مال فيها إلى سيادته، وتمكنه من استغفال الفراخ، كانت كل فرخة تتجمع بجانب أختها، وتحيط بالغراب من جميع الجهات، هاجمته منقضة بمناقيرها، استقبل جسد الغراب -في مفاجأة أذهلته- لسعات وعضات المناقير، أكثر ما كان يخيفه هو فعل المناقير في رأسه، اختلطت المرئيات في عينيه، اضطر مرغمًا أن يلجأ لحيلة التظاهر بالموت، ارتمى على حافة المكان الواسع رافعًا قدميه لأعلى صامتًا عن أي صوت، وجامدًا عن أي حركة. كان كلام يدور في ذهنه، انتفض بدنه من حدته بسبب حبسه، وعدم إخراجه: «الغبي الأبله هو أنا، خدعني مظهرها الهادئ فوقعت في الوهم، وعمى اليقين!!».

قوبل هرموش بصمت متوتر، لم يسارع أحد بالتعليق، سواء كان سلبيًا أو إيجابيًا، نظراتهم كلهم تعلقت بفم بلتاجي، واضطر بهنس أن يهمس: «هل يفهم؟!».

«يا ويلك يا هرموش.. سنستقبل يا جماعة قتيلًا هذه المرة أكيد».

اقترب خليل حواس من بلتاجي، حاول التبسط معه، واكتساب جانبه، مع شعوره أن هواء البحر أكثر إنعاشًا، أضاف إليه شجاعة، ليسأل أين كان يخفي المسدس؟ أجابه بأنه كان ملتصقًا أسفل صدره قليلًا بشريط لاصق، وأنه كان ينظفه بشكل دائم، وهم نيام، وقد خاف من فساده بعدما سقط في ماء البحر، ولكنه اطمأن لسلامة عمله، ألم يصِب وكاد يقتل؟ أكد خليل حواس على تأكيده بأن المسدس يعمل بشكل جيد كما رآه، وخير دليل هو إصابة مخيمر ولد دهشوري. بالمناسبة، هل تزور بلدكم في الصعيد؟ كانت الإجابة مفاجأة؛ إذ قال بلتاجي إنه لم يعد إلى بلدته منذ سعى خلف ثأره، صاح خليل حواس: «منذ عشرين سنة؟!» أجابه: «منذ عشرين سنة، سأرجع عندما أحصل على ثأري».

[24] يُحكَى أنّ:

النوم في باطن القارب كما كانوا يفعلون قبل خلع ألواح الخشب لاستخدامها كوقود، صار متعبًا، وربما غير مريح أو غير ممكن، بعد أن تم خلع أكثر من نسبة الثلاثين أو الأربعين في المائة من الأرضية. بدأ سلامة هرموش الشكوى، فقد كان يضطر أن يكون حاجزًا طبيعيًا بين زوجته والبقية من الشلة، فيجد نصف جسمه يخرج عن الطبقة العلوية التي ما زالت لم تُخلع ألواحها، وبين الطبقة السفلية التي تحتها الماء مباشرة، وعدة من فروع الخشب الواصلة والممسكة لبدن القارب، كانت هذه الأعمدة تسبب له أرقًا وألمًا مستمرًا، كان هذا وجعًا لا يقاس بتعطيل صعوده إلى الجزيرة، ولقائه بكنزه في أرض الرمال، من يراه يظن أن الأمور لا تعنيه، ولكن في صدره نارًا متقدة، يخمدها بقوة طبيعية موجودة في تكوينه أن يكون باردًا من الخارج، متماسكًا إلى أقصى درجة، كان بلتاجي وسخافة طلبه تطليق زوجته ليتزوج منها شيئًا هينًا عرف أنه سوف يكون كالعدم تمامًا، ذلك لعدم منطقيته، أما عدم المنطقية في إبحار القارب، وشقه للمياه، بلا وصول إلى الجزيرة، فهذا هو تعبه الحقيقي، وصل إلى حد مساءلة نفسه: لماذا ظهر بهذا العته في إصراره على أن يكون صعود الجزيرة في يوم شم النسيم بالذات من العام القادم، وصل به التفكير في هذه النقطة أن يعتقد أنها إرادة ومشيئة لا يملك إلا إطاعتها، فهل يأتي الحل في منطقة ما من وعيه؟ كان هناك إيمان بأن الحل سوف يأتي في موعده.

فكّر تفكيرًا شيطانيًا بأن يجعل من بهنس طرفًا في المسألة، حيث يستثير نخوته ومثاليته، وقلقه من أن يرى شيئًا غير منطقي أو ضد

مبادئه، فيدفعه للوقوف أمام بلتاجي، كان يهز رأسه بعنف لطرد الفكرة الأخرى لمسار مواجهة الاثنين، فيقضي أحدهما على الآخر، ولكنه يود أن يقضي الاثنان على بعضهما البعض، وهذا ممكن. في لحظات يشعر بفظاعة المآل، وأنه سيكون السبب في جعل هذه النتيجة محل التنفيذ، بعد أخذٍ وردٍّ مع نفسه قال إن الأشخاص الذين تراعي بينك وبين نفسك ألا تؤذيهم هم الذين يؤذونك، ما معنى هذا يا سيد هرموش يا أبا الشطح والحكم؟ معناه أن القدر جعل بهنس موجودًا، في مقابل الشخص المسمى بلتاجي، الأول مستقبله على الأرض عند العودة غير مستقر، هو عرضة للقبض عليه، في قضايا تمس الأمن، فهو يعارض في الفارغة مثل الملآنة، الآخر لا نعرف عنه شيئًا، غريب لا يملك مستقبلًا، قاتل، هووووه.. لا.. إذن لا حرج عليّ ولا عتاب إن جعلتهما يصطدمان، ليتم تصفيتهما لبعضهما البعض، وهل يطول زمن التصفية؟! يطول، لا مشكلة هنا، معنا الوقت.

زوجته يبدو أنها قرأت أفكاره، تحدثت معه همسًا، دخلت في الموضوع مباشرة كعادتها معه، وهي بهذه الطريقة تحصل دائمًا على الحقيقة؛ لأنه دائمًا ما يقع في مصيدتها، قالت له إن ما يفكر فيه لا يليق بشخصيته التي يجلُّها الناس، قالت هذا مع أنها لا تعرف ما يفكر فيه على وجه اليقين، فخر سلامة هرموش مباشرة، معترفًا لها بخطته كاملة، نظرت إليه نظرة طالت حتى بدأ يقلق، وسألها ما بها؟ هنا انفجرت فيه قائلة إنها لم تكن تفكر واحدًا في المليون أو خطر على بالها تفصيلة واحدة من هذه الخطة الحقيرة، وسكتت، لم تبادله بعدها الحديث، وزادت بأن استدارت وأعطته ظهرها، مما يعني أنه

وقع في خطأ كبير، وأنه في مشكلة!!

اضطر أن يكون قريبًا من خليل حواس الذي يعرفه أيضًا في تلك اللحظات المصيرية لا يتركه فيها، ويتبعه في كل مكان من القارب متحدثًا عن أي شيء دون تركيز، هنا عليه أن يواجهه مباشرة بقوله: أهناك شيء يا سلامة؟

يقال إن خليل حواس بعد أن أظهر صاحبه مكنونه ومخاوفه، أشار عليه بقول واحد لا ثاني له، هو ترك الفصل في هذه المسألة للتحولات الطبيعية التي حتمًا سوف تأتي؛ لأنها من قوانين الحياة، وسوف تأتي فتغير وتبدل وتحول، قال إنه مؤمن بهذا إيمانًا عميقًا، وإن أمور حياته تسير وفقًا لهذا القانون، وضرب له مثلًا في تصميمه على أن يكون صعود الجزيرة في شم النسيم المقبل، والانتظار سنة كاملة، وأنت تعرف أن كنزًا موجودًا عليها، وربما سبقك أحد إليه، ولكن كان هناك تشبع مني بهذا القانون الصارم، سوف نصعد الجزيرة يا هرموش، اطمئن.. كيف نصعد إليها؟ لا أعرف، ولكن يقيني أننا سنصعد.

يُحكَى أنَّ:

واحدًا منهم وقف وسط القارب عامدًا وضع قدميه على الألواح التي ما زالت باقية في بطن القارب، ولم تُنزع بعد من أجل استعمالها كوقود، خاف أن يدوس بإحدى قدميه على خشب القاع، وهو يراه أسود متشربًا لبعض الرطوبة، وانتشار الفطريات، صاح فجأة: ما هذا الهدوء في الطقس فوقنا، والموج من حولنا؟! أنظل على هذا، وليس في الجهات الأربع أحد قريب منا.. هل نحن تائهون في متاهة؟!».

يقال إنه فور انتهائه ردت الطبيعة عليه بلمعة برق كأن أحدًا يرسم خطًا طويلًا متعرجًا في صفحة السماء، بعده صدمت الأسماع كركبة رعد هزت قلوبهم، وأعتم الفضاء حولهم، وهي تنزل المطر بغير أن يكون هذا موسمه، ظلت تمطر طوال النهار بلا انقطاع، امتلأ بطن القارب بالماء، وتبللوا فليس لديهم غطاء، اقترح بهنس أن يغتنموا فرصة تساقط هذه الأمطار وجمعها استفادة منها في الشرب، خاصة وأن الزوجة أعلنت قبل هطولها بأن جركن الماء أوشك على الانتهاء، أثنوا عليه وعلى فكرته، وبين التساؤل والسخرية جاء القول: في ماذا نجمع الماء؟ هل نجمعه في تكوير يدي كل منا؟!

وبخوا القائل، فحالتهم لا ينقصها من ينخور فيها، فيزيد بؤسها، سمعوا مخيمر صاحب القارب وهو يقول إن في خزانة القارب لو مد أحدهم يده إلى آخرها، سيجد طبقًا معقول الحجم ولكنه عميق من البلاستيك، يمكن استعماله في جمـع ماء المطر، وكلما امتلأ يُصب في الجركن، وهكذا هكذا، قال ثم تأوه، وبعده صمت.

يُحكَى أنّ الطبق العميق امتلأ أكثر من مرة، وامتلأ أيضًا الجركن، قال واحد منهم: كأن الطبيعة يا إخوان تحنو علينا هذه المرة.. لا تيأسوا.. سوف نصل إلى الجزيرة.. كل ما نحن فيه وهم، إياكم أي واحد فيكم يتمكن منه الاعتقاد أننا في مشكلة، أؤكد أن ما نحن فيه وهم.. وهم.. استعد لموجة أخرى من أقواله، إلا أن بهنس وخريزة صرخا فيه معًا: وهم وهم وهم.. وهل أنت والأمطار تتساقط فوق صلعة رأسك وهم؟! ما هؤلاء الذين لهم قدرة على تطويع اللغة ومفرداتها لتكون خداعًا في خداع؟!

صاح أحدهم بطريقة ساخرة: «نحن في بحر الظلمات.. يا لطيف يا لطيف».

** **

02

الفصل الثاني

[25] يُحكَى أنّ:

بعد انتهاء البرق والرعد والأمطار، شمعت أنات مخيمر صاحب القارب، ارتفعت حرارته، وبدأ يخلط، وقد أضاف مشكلتين إلى مشكلتهم الأصلية، قالت زوجة هرموش إنه لا بد أن يأكل ليعيش، وإنه ليس لديهم سوى السمك الذي يصطادونه، ولا بد في هذه الحالة من تقديمه مسلوقًا، فكيف يتم سلق السمك، وليس لديهم وعاء؟

قام خريزة بفتح ضلفة خزانة القارب بالمفتاح الذي كان معلقًا حول رقبة مخيمر صاحب القارب، ونزعوه أثناء تطهير الجرح وإخراج الرصاصة، فتش فيها فعثر على وعاءين من الألمونيوم، اختار واحدًا منهما بيد واحدة، بينما اليد الأخرى غير موجودة، كان قديمًا يعلوه السواد، ولكنه يفي بالغرض، كانت السمكة أكبر من أن يحتويها الوعاء المختار، فاقترحت الزوجة تقسيمها إلى نصفين، استعار مطواة بهنس رغم تأففه بسبب أنها ستتلوث بالزفارة، صاح فيه خريزة ألا يكفيه ماء البحر لتنظيفها؟ فرضخ وسلمها له.

تحركت الزوجة وهي تقول إن إعداد طعام مطبوخ من عملها، قامت بتنظيف السمكة أولًا في ماء البحر، مع إزالة الزعانف والقشور، وصبت الماء العذب من الجركن، ووضعت الوعاء على الموقد الصفيح، نظرت نحو بلتاجي ففهم المطلوب، قام بنزع لوح خشب من أرضية القارب العلوية، سلمه لبهنس ليقسمه إلى قطع صغيرة، يمكن إدخالها أسفل الموقد وإشعالها، جلس بجانب الزوجة بحجة المعاونة، صرخ فيه بلتاجي أن يبتعد هناك إلى قرب دفة القارب،

وعدم مغادرته مكانه لأي سبب من الأسباب، ربتت الزوجة أعلى صدره قائلة له أن ينفذ منعًا لأي مشكلة يمكن أن يعقبها التهور، نفذ بهنس دون اعتراض، ولكن وجهه كان كدرًا، وهو يلتفت إلى المكان همس لنفسه: «زمن بلتاجي القفة والذي معه مسدس!!».

سمعه خليل حواس، وكان لحظتها يمسك بيد الدفة، تبادل معه الضحك على القول، ثم أكسب وجهه شيئًا من الجدية، وهو يهمس: «كن ذكيًا، لا تجعله يكسب وضعًا بتهورك.. اصبر، لكل شيء نهاية».

يُحكَى أنّ الوعاء بعد نضج السمكة لم يذهب إلى صاحب القارب دون أن يمر على بلتاجي الذي أكل نصف السمكة، وشرب نصف شربتها وتَكَرّعَ، ثم أمر أن يعطوا ما تبقى للجريح.

أخرج بهنس هاتفه المحمول، وفتحه ظل ينظر لشاشته، خرج خريزة من داخل قماش الأدبخانة إلى خلف بهنس: تأمل ما يفعل، وعرف أنه يقرأ، سأل: ما هذا؟! أجاب بهنس: «رواية كنت بدأتها قبل رحلتنا الميمونة».

«ما هذا؟».

«ما هذا يا أخي؟!».

انحنى لحظتها ووضع إصبعه على سطر مكتوب بلون مختلف عن متن الصفحة «تمتع بانتصاب قوي مهما كان عمرك – اضغط هنا لتعرف الطريقة».

ضحك بهنس، وقال حتى مع الأدب ينشرون إعلاناتهم، قال خريزة إن هذا قلة أدب وانعدام للذوق، ماذا لو كانت امرأة هي التي تقرأ؟!

«يا صاحبي عصرنا عصر الإعلانات، كل شيء يدور في دائرتها، صار الإعلان قوة، وزادت قوته باستخدام وسائل الاتصال الحديثة والنت».

توسع بهنس في الشرح من وجهة نظره قائلًا: «يا صاحبي إنهم بإعلاناتهم يروضون الناس على الاستهلاك، وخلق حاجات وهمية لديهم، ودفعهم نحو إشباعها بأي سبيل، بوسائل يمكنها في بعض الأحيان أن تكون غير متوافقة مع واقعهم المعيش!!».

يقال إن خريزة جلس وتبادل حديثًا طويلًا مع بهنس، حاول فيه أن يبعده عن أفكاره، ويركز حول ما يخص وضعهم على القارب، وأهم ما فيه هو بلتاجي، ولماذا لا يقوم واحد منهم بسرقة المسدس نقطة قوته المتفوق بها على بقية الشلة، كان من رأي بهنس أنه ليس حلًا عمليًا، فهو حل يعيد تداول الهيمنة لمن يملك المسدس، أضاف أيضًا أن وقع استبداد بلتاجي ليس في قوة من يملكه من مجموعتهم، أي لو امتلكه واحد من الشلة فسوف يكون إحساس المذلة أكبر من ناحيتنا، عندما يمارس على الجميع غشم السلطة وجبروتها من جانب صاحبنا الذي يملك المسدس بديلًا عن بلتاجي، في هذه اللحظة سمعوا مخيمر صاحب القارب يتمتم بكلمات، اقتربوا منه، كان يتكلم بصعوبة: «قولوا للأهبل إنني لم أقتل في حياتي حتى ذبابة».

«هو يعرف اسمك كاملًا».

صرخ بلتاجي من مكانه الجالس فيه مع خليل حواس عند مقدمة القارب: «لا تتعبوه.. اتركوه.. أريده يحصل على الشفاء.. أريده

صحيحًا عفيًا».

صاح بهنس وخريزة معًا أن مخيمر يريدك، تعال يا أخ بلتاجي، لن تخسر شيئًا، حواس قال له أن يذهب ربما عرف شيئًا جديدًا عن ثأره، عند كلمة الثأر تحرك بلتاجي، وعند رأس مخيمر جلس قائلًا: «لا حديث عن الرأفة أو الغفران، ثأر أبي ليس فيه مساومة».

خرجت كلمات مخيمر بطيئة، قال: «أتعرف اسم أمي؟».

ضحك بلتاجي ساخرًا: «طبعًا يا ابن نسيمة الفراوي.. أليس هذا اسم أمك؟».

«خذوا من جيب الصديري محفظة توجد بها شهادة ميلادي بها اسم أمي».

أخرجوا بالفعل محفظة جلدية بها عدة أوراق، بحثوا حتى عثروا على شهادة ميلاد مخيمر دهشوري قداح العجوة، صاح بهنس: «محل الميلاد أبو تيج أسيوط.. اسم الأم خدوجة محمدين عوضين النمس».

لم يعثر بلتاجي على كلامه، ظل وقتًا يقول: «مه؟!.. مه؟!.. مه؟!».

بجرأة صاح بهنس عليه: «ستظل ثمهمه طويلًا؟! من أين أنت يا أبا المسدس؟».

«من أبو تشت قنا».

«كنت ستقتل بريئًا يا مغفل».

فجأة ضرب خريزة يد بلتاجي الممسكة بالمسدس، فطار المسدس

نحو البحر، وغاب سريعًا في مياهه، قفز بهنس عليه وهو بعد في حالة الدهشة والذهول، ثم أخذ يصفع ويلكم، إلى أن صرخت زوجة هرموش خوفًا من تأرجح القارب، وتعرضهم للوقوع في الماء: «بهنس... تعقل.. كنت تدينه، فهل تكون مثله؟!».

هدأ بهنس فورًا بعد جملتها المتسائلة.

يُحكَى أنَّ:

بلتاجي ظل يبكي بحرقة طوال الليل، كلم نفسه لائمًا، وكلم بحر الظلام، لعدم التحقق واندفاعه الأعمى دون التريث والمعرفة الدقيقة، عتب أيضًا على من خدعه، وأعطاه خريطة وعنوانًا فأخطأ السير.

يقال إنه في الصباح كان ينظر طويلًا نحو مرسى القارب هناك بعيدًا، ويصيح: يا رب اجعل البحر يابسًا حتى أجري للمدينة، أدبر حالي، سألوه هل استقرت نفسه ورجع عن قصة الثأر التي ضيع من أجلها عشرين سنة من عمره؟ أجاب بأنه سوف يعمل ليلًا ونهارًا من أجل جمع المال اللازم لشراء مسدس أو بندقية نصف آلية أو آلية، لن يرجع بلده خائبًا أبدًا.

يقال أيضًا إن الشلة ظلت تراقبه طوال هذا الصباح حتى قرب المغرب، وهو ثابت الوقفة والنظر نحو اليابسة التي جاؤوا منها، ثم وجدوه فجأة يقفز نحو البحر، ظل يجدف بذراعيه في سبيله إليها، ظلوا يرونه حتى نزل الظلام فاختفى في ستره!!

تساءل خليل حواس: ألم يصرح هذا البلتاجي بأنه لا يجيد

السباحة؟!

أجابوه أنه فعلًا كان يصرخ بأنه لا يعرف السباحة!!

قال: عجبًا إنه يسبح كإوزة تهرب من مفترس يريد افتراسها!!

صاحوا: يا له من تشبيه!!

إذن لماذا كان يصرخ فينا بأنه لا يجيد السباحة؟!

هذا من مكر الإنسان، كان يستدر تعاطفنا عندما يخدعنا بضعفه لنسرع بإنقاذه، وإخراجه من المياه.

استقام صاحب القارب من استلقائه، قال إنه بخير، وجائع، قالوا إن لديهم سمكًا مشويًا، أيريد منه؟

قال: هاتوه بسرعة.

نظر تحت أقدامه، وجد ثلاثة أرباع بطن القارب من الطبقة العلوية مخلعة ألواحها، صاح صياح وجع: خرّب الله عقولكم، ماذا فعلتم بالقارب؟!

قالوا: كُل وأنت صامت.

[26] يُحكَى أنّ:

أحدهم أوضح وصفًا لما أحدثه سلوك المدعو بلتاجي الذي استمر عشرين سنة يتتبع قاتل أبيه، وحينما وصل إليه حاول قتله، فشل وأصابه إصابة هينة، ثم إن هذا الفشل فتح بابًا على اكتشاف أنه كان يتتبع أثر رجل ليس له أية صلة بجأره، أطلق على هذه الحالة قارئ الروايات بهنس عنوانًا، هو تراجيديا -أي مأساة- رجل جنوبي، له عقائد حياتية يعيش تحت سطوتها، ولا يستطيع أن يحيد عنها، ولكن هرموش ركز على شيء آخر، هو تصوره حين امتلك أداة قتل أنه يستطيع أن يسوس جماعة القارب أو الشلة، أعماه هذا الاعتقاد فنصب من نفسه الحاكم الآمر الناهي فوق القارب!!

كانوا يميلون نحو ما طرحه، حتى أنهم رفضوا اعتبار أي واحد منهم يمكنه أن يحكم جماعتهم؛ لأن كل فرد منهم خاف أن يتعامل بعد اعترافهم به كرأس لهم ينقلب إلى ديكتاتور، هكذا شرح بهنس الذي قال بهذه النظرية من قبل، وهو هنا يؤكدها للجميع، ولذلك ترك أمرهم مشاركة، مع الاعتراف أنه يمكن أن يحدث شجار ما حول أمر ما، لاختلاف الرأي، ولكن الغلبة للجماعة أو للمنطق، لم يشغلوا أنفسهم بهذا كثيرًا، أما ما أدلى به حمدي بهنس، وحاول تنفيذه متأثرًا بالمشهد الأخير لبلتاجي، ألا وهو السباحة نحو اليابسة التي جاؤوا منها، خاصة وهو بالمناسبة عضو فريق كرة الماء في أحد الأندية، ويلعب في دوري الدرجة الأولى، وهي لعبة لا يمارسها إلا سباح مجيد، هرموش وصف ما هو مقدم على فعله بالرعونة، وواصل بأسلوب ظنه مؤثرًا حين ذكّره بأنه ما زال شابًا أمامه مستقبل، فلا يضيع نفسه ويضيعه، فجأة قفز حمدي بهنس إلى

البحر، وبدأ السباحة، وبقية الشلة فوق القارب تشاهد، كثر حديثهم عن المسافة، وهل يمكن له أن يقطعها دون تعب ليصل بالفعل إلى الشاطئ؟

بعضهم قال إنه لن يستطيع، فالإنسان مهما بلغت قوته فإن لها حدًا بعده سوف ينهار ويضيع، وبعضهم ذكّرهم برياضة السباحة الطويلة، وأبطالها البارعين من المصريين خاصة، وأن هذا يرجع إلى سمات جينية تميزهم، أهمها الصبر والجلد، أعلن هذا البعض أن بهنس سوف يصل سالمًا إلى الشاطئ، فهل يا ترى يمكن له أن يعمل على إنقاذهم، بإرسال لنشات قوات الإنقاذ البحري، ورجالها المدربين على المهام الصعبة في الظروف المناخية الصعبة؟

من وقف ضد هذه الأمنية كان هرموش وحواس، حاولا أن يخفيا الغرض الأساسي من عدم رضاهما عن وجود شرطة إنقاذ تبعدهم عن الجزيرة، رغم عدم وصول القارب لها، والغريب أنه ما زال يبحر نحوها، استطاعا أن يلونا حديثهما بالخوف عليه من الغرق، مع أن الآخرين ذكروا اسم بلتاجي الذي لم يكن سباحًا محترفًا أو يلعب كرة الماء، رد حواس بأنهم غير متأكدين من وصوله سالمًا إلى الشاطئ، وأن مصير بهنس سيظل معلقًا.

شكك واحد منهما موضحًا للجميع أنهم يتناسون الحدث العجيب الذي هم فيه والقارب، فالخوف من أن يحدث لقوارب أو لنشات قوات الإنقاذ نفس المتاهة في الإبحار وعدم الوصول، الصوت المغاير لهذا الطرح قال بأن بهنس عندما سبح لم يحدث معه هذا البعد الغريب، بل شق طريقه مثل سكين في قالب حلوى.

قال خريزة إنه لا يعتقد أن بهنس سوف يحاول الاتصال بأي جهاز يمت للحكومة بصلة، اطمئنوا، أقول إنه يمكن أن يعود سباحة ليثبت لنا نجاح مهمته، وأننا قادرون على فعل ما فعل!!

قال سلامة هرموش إن هذا لا يشمل الجميع، فهو صدقًا لا يعرف السباحة، ولا زوجته، اختصر ما يود قوله من أن رجوع بهنس ليشعل حماسهم ليقلدوه شغل أحزاب وكوادر مكشوف، ولن ينجح معهم.

التفتوا عند هذه النقطة نحو صاحب القارب مخيمر، متصورين أن لديه إجابة، فرفع كتفيه وقلب راحتيه ثم قال إنه ليس لديه تفسير لما حدث للقارب والجزيرة، أما من قفز في الماء بجرأة فهو بارع في السباحة، وقدّر المسافة، وسوف يصل، قال أما عما حدث للقارب فإنه شيء فيهم هم، هذا هو تفسيره دون غضب أو ضيق.

أيعني أن السبب فيما يحدث للقارب الذي لا يصل، والجزيرة التي تبتعد هو سبب كامن فيهم؟!

تسبب هذا في ضيقهم لشعورهم أنه وصمهم باتهام صريح، وأن عليهم الدفاع عن أنفسهم تجاه ظاهرة لا يد لهم فيها، دع الحديث عن غرابتها، فهي لها سبب بالتأكيد، ولكنه غائب عنهم، من السهل ردها إلى غيبيات، والدخول حينئذ في سكة تزيد الأمر تعقيدًا!!

يُحكَى أنّ:

السمك أصبح الوجبة الرئيسية المتاحة، حدث مرة أن قبض خليل حواس على طائر عثر الحظ، كان ضمن جماعة حط على مقدمة القارب حيث كان يستلقي، لم يكن نائمًا، فتح عينيه ومد

يده لتقبض على سيقان الطائر، مع الصياح والتهليل قال إنه سوف يشويه ويأكله تنويعًا، حتى لا تزهد نفسه أكل السمك، بالفعل ذبحه بسكين استعارها من صاحب القارب مخيمر، وحاول نتف ريشه، وهذا كان صعبًا؛ إذ قالت زوجة سلامة إنه يحتاج لتغطيسه في ماء ساخن، اختصر ووضع الطائر على النار بعد أن خلع لوحًا كاملًا من الطبقة الداخلية للقارب، رآه مخيمر صاحب القارب، ولم يعترض مثل اعتراضاته السابقة، بعد أن تفحم الطائر أبعده عن النيران، وبدأ في فصل جلده عن لحمه، وبان لحمه الأبيض، وهو يبخ بخاره، أمسك بقطعة معتبرة، وقرب فمه المفتوح وقضم أول قضمه متلذذًا، وبقية الشلة ينظرون صامتين، لاك قطعة اللحم مرة ومرة، ثم تفلها بقوة من فمه، وهو يصرخ من مرارتها وتشبعها برائحة السمك: «يخيييه مُرة ومنقوعة في زفارة».

تعالت الضحكات، وصاح قائل بأن ليس لحم كل طيور البحر صالحًا للأكل، ورد عليه خليل حواس لماذا لم يدلِ بهذه المعلومة قبل تعبه في التحضير والشي؟! أجابه صوت خبيث: كنا نريدك تقع فيما وقعت فيه وتضحكنا.

مال سلامة هرموش إلى التأسي على أحوال بيته وعياله والعمل بمصلحة الشهر العقاري، قالت الزوجة إن الأولاد كبار يمكنهم الاعتماد على أنفسهم، قال إنه يتصور الزملاء الآن في المصلحة يتساءلون بدهشة: الأستاذ هرموش غائب منذ أربعة أيام على اعتبار أن اليوم الخامس كان إجازة رسمية، وهو لم يغب إطلاقًا طوال خمس وعشرين سنة؟!

ثم الأكثر طرافة هو معرفتهم بصداقته لخليل حواس الموظف بنفس المصلحة، وأنه غائب نفس المدة، سيكثر حديثهم عن اقتران الغيابين، ردت زوجته بحدة: وماذا لو حدث؟ وهل في الأمر ما يغضب؟!

نفى أن يكون الأمر مغضبًا، ولكنه يشعر بالضيق؛ لأنه وصديقه سيكونان موضوعًا للثرثرة والقيل والقال، ضحكت الزوجة قائلة إنها رغم زواجها منه، ولهما أولاد في الجامعة إلا أنها لم تكن تعلم أنه حساس هكذا!!

ثم تابعت: إنهم سوف يتكلمون حتمًا فهذه طبيعة في البشر، وينبغي ألا نفكر بها حتى لا نتعب أنفسنا دون طائل.

[27] يُحكَى أنّ.. يُحكَى أنّ:

قفزة بلتاجي إلى البحر والسباحة نحو شاطئ المرسى الذي جاءوا منه، ومن بعده حمدي بهنس، قد وجد من يصفهما بالاضطراب وعدم الروية في اتخاذ القرار الصحيح، والله أعلم أما زالا أحياء أم ابتلعهم البحر، هذا من ناحية، أما من الناحية الأخرى فما أقدما على فعله رغم ما يتصف به فعلهما من خطورة، إلا أنه في نفس الوقت يسِمُ الباقين -وخاصة الرجال- بالجبن وقلة الحيلة، والقعود خائبين عن إيجاد وسيلة تجعل القارب يلتقي بالجزيرة، أي إلغاء هذا الوهم أو الحقيقة، السحر أو أي سبب آخر من شأنه أن يجعل إبحارهم ميسرًا، والمسافة للوصول إلى الجزيرة مسافة طبيعية في زمن طبيعي، هل يجرؤ واحد منهم أن يجرب؟!

خريزة ومخيمر صاحب القارب تهامسا بشيء مركزه أنهما لاحظا أن هرموش وحواس لم يهتما كثيرًا بالرجوع بالقارب إلى المرسى، كما أنهما أعطيا ظهريهما للجهة التي جاء القارب منها، دائمًا وجهاهما في اتجاه واحد، هو اتجاه الجزيرة، خريزة اضطر أن يكشف سرًا ائتمنه عليه صديقه حواس، وأغراه بصحبته ضمن الرحلة، وهو وافق دون أن يهتم كثيرًا بحكاية الكنز الموجود على يابسة الجزيرة، طلب مخيمر صاحب القارب منه أن يقص عليه الحكاية من البداية مرة أخرى، فأعاد خريزة القص بتوضيح وتطويل حتى فهم سر الرحلة، ولكنه سأل عن بهنس، أيعرف؟ رد خريزة بأنه الوحيد الذي لا يعلم، لأنه هو الذي دعاه دون التطرق لمسألة وجود كنز على يابسة الجزيرة، يعرف مكانه كل من هرموش وحواس، سأله مخيمر: أيعرف السباحة؟ أجاب أنه يتقنها تمامًا، فعاد يسأله لماذا لا يفعل مثلما فعل

الملعون بلتاجي وصاحبه بهنس؟

تردد في الإجابة، فلاحقه مخيمر قائلًا: لأنك تمني النفس أن تصعد الجزيرة، وتصل إلى الكنز، صحيح ما أقول؟

اضطر خريزة أن يجيب بإيماءة بواسطة رأسه، فقال له: لا يبدو على الأستاذ هرموش الاهتمام، والأستاذ حواس انفعالي لكن يقوده هرموش، قال له: آه يا خبيث لك قدرة على قراءة الناس، قال له: لو صعدنا الجزيرة أأكون ضمن من يصيبه توزيع خير الكنز؟ قال له: طبعًا طالما الخير وفير، لا مانع أن من يحضر يكون له نصيب، هل يخسر جبل رمل شيئًا لو أخذت ملء جوال منه؟ قال له: أنت واثق وكأن الكنز جبل؟! قال له: سمعت من حواس أن كلما مددت يدك عدت بها وهي تمسك جوهرة، قال له: كأنه حلم يا أستاذ خريزة، وهرموش قادكم بشطحة من شطحاته، قال له: أتظن؟ قال له: لا أعرف.. الحياة عجيبة، والناس أعجب، ومن يعش يرى، لكنها حكاية في كتاب ألف ليلة وليلة!!

يقال إن خريزة بعد هذا الحديث لم يرتح صدره بإزاحة السر عنه، بل فتح على نفسه فتحًا واسعًا، تقابله رغبة قوية في رتقه، كانت الجزيرة هناك يراها بعينيه قريبة، ويرى هرموش وحواس كسلانين، وكل منهما ميت القلب، صرخ فجأة متهمًا الكل بالتنصل من فعل أي شيء في سبيل وضع حل لما هم فيه، تأمله سلامة هرموش من فوق لتحت، خاصة أن خريزة أثناء قوله كان ينظر نحوه، فظن أنه يعرِّض به، صرخ محل صرخته: «لا أراك إلا لسانًا دون أفعال.. اجعلنا نشاهدك تفعل بدلًا من اللت والعجن».

يُحكَى أنَّ:

الشلة دب فيها الشقاق، وكاد القارب ينقلب بهم، وارتفعت صرخات الزوجة، إلا أن هرموش ظهر قويًا على غير ما يُظَن حين النظر إليه، فعندما قفز عليه خريزة بعدما ارتج عليه، ولم يجد شيئًا يقوله، ردًا على ما وصفه به هرموش، واعتبره إهانة، تلقاه في حضنه ورفعه على ذراعيه، كان ناويًا قذفه نحو البحر، إلا أن زوجته تعلقت به راجية أن يتعقل، فقام بالالتفات نحو بطن القارب، وهبده فاستقبلته عوارض القاع المخلوع عنها الألواح، كانت سقطة مؤلمة، صرخ على أثرها خريزة لاعنًا متألمًا: «ضلوعي يا ظالم.. ضلوعي!!».

خليل حواس لم يعجبه ما فعله زميله، وجّه إليه اللوم على سرعة ثوران غضبه، وعدم تحكمه في انفعالاته، فما كان من صاحبه إلا أن دفعه في صدره، فتعثر في جسد مخيمر الذي تأوه، وقال إنه عندما يحصل على الشفاء الكامل سيجعل كلًا منهم يعرف قوته، رفسه حواس، رغم أن ما قاله يبدو أنه يميل نحو التعبير عن عدم رضاه عما فعله هرموش، كذلك فإن خريزة ما زال يشعر بالإهانة، فأقدم على إفشاء سر الكنز يغيظ به هرموش، مع أن السر يخص حواس: «لعلمكم خليل حواس يعرف مكان كنز على الجزيرة، واصطحبني من أجل مساعدته مع حصة لي».

هرموش صدره ضاق من أفعال حواس، والله أعلم كم من الناس علم بسر أرض الرمال، ولم ينظر إلى ما قيل على اعتبار أنه كيد، فهمَ المسألة على نحو آخر، هو أن خليل حواس خسارة فيه أن يكون شريكًا له، صاح: «أي كنز هذا يا خليل؟!».

حاول خليل حواس أن يُكذِّب ما قاله خريزة، فقال للجميع ألا يصدقونه، يبدو أن ذهنه يمتلئ بالخيالات، فأي كنز يمكن أن يكون موجودًا على جزيرة غير مأهولة بالسكان؟!

صاح خريزة: «أنت الكاذب.. أنت قلت كنزًا من الذهب».

قال واحد منهم: «وأي علاقة بين أن تكون مأهولة بالسكان، أو غير مأهولة، ووجود كنز بها، أو عدم وجوده؟!».

أجبر حواس نفسه على الضحك بطريقة ساخرة، وقال إن الحكومة تملك وزارة تسمى وزارة الصناعة والثروة المعدنية، تملك خريطة مسح شبه متكاملة لكل أماكن وجود المعادن على امتداد الخريطة، ثم إن تعدينك بلا حصولك على رخصة يعرضك للعقاب حسب قوانين البلاد، لا تستمعوا له، إنه يخرف!!

«ولكن هذه الحكومة يمكن أن تفوت عليها جزيرة صغيرة وسط بحر، فلا تعرف ما بها من معادن تختفي تحت ترابها!!».

فجأة هاج هرموش ولطس حواس، ثم حاول توجيه اللكمات نحو خريزة، وجد أن مخيمر صاحب القارب يقف على قدميه، يبدو أنه حصل على الشفاء، يصرخ في وجهه أنه ومن معه شوية نصابين ملاعين، وأنه من ورطه في هذه الورطة، فلا استطاع الوصول إلى الجزيرة، ولا استطاع العودة إلى المرسى حيث كان، ثم إن القارب صار بقايا قارب خُلعت ألواحه، وسوف تتعطل مصالحه بسبب هذه الرحلة المشؤومة.

كان تبادل الضرب بين الرجال الأربعة له صوت في فضاء البحر

الساكن في هذه اللحظة، الأمر طال مما شجع الزوجة على الاشتراك في الأمر، كانت لسعاتها غير مؤثرة، ولكن رجلًا منهم أو رجلين اعتبرا الفعل منها عيبًا وطامة كبرى لا بد من الرد عليه بضراوة، وهذا ما كان، تشارك حواس وخريزة في الهجوم على سلامة هرموش، وأوقعاه في بطن القارب، وداسا عليه بأقدامهما، لولا أن الزوجة تعلّقت برقبة واحد منهما من الخلف، قصد الخنق، وقد نجحت في شل حركته ليستطيع زوجها القيام ومواجهة الرجلين!!

يُحكَى أنّ:

بعد ساعة من المناهدة والشد والجذب والزعيق والخمش والقرص، همدت حركتهم، ثم توقفوا عن كل ذلك واستلقت أجسادهم في أنحاء القارب، لم يرَ منهم أحد أن تغيرًا حدث، وأن القارب يشق الماء ببطء، بفعل التيارات والأمواج في طريقه نحو الجزيرة، كان الليل يهبط فوق الجميع بفضاء ممتد مظلم، بعد فترة بدأ همس متقطع يدور بين خريزة وخليل حواس ومخيمر صاحب القارب!!

[28] يُحكَى أنّ:

ما حدث في الليلة السابقة غسلته شمس اليوم التالي، وأزال آثاره النهار، إلا أن سلامة هرموش أصابه شك، وصار قلقًا من خليل حواس الذي أحصى من يجيد السباحة بين الموجودين على القارب، فوجد أنه وسامي خريزة، ومخيمر صاحب القارب، أما من لا يجيد السباحة فكان سلامة وزوجته، عندما طرح نتيجة إحصائه علنًا، تلقى لومًا شديدًا من جانب صاحبه وزميله، ووصفا طريقة تفكيره بالأنانية والخيانة، فأي معنى لإحصائيات تظل في خانة المعلومة لا أكثر؟! ومع هذا فإنها تؤلم أناسًا أعزاء، اعتذر له حواس، وقال إنه لم يقصد إيلامه، وعليه أن يعتبرها ردة فعل من أفعاله المحبة للإحصاء لا أكثر.

مر النهار كسابقه بين تبادل الأحاديث، وبين اختراع ألعاب قديمة أعادتها الذاكرة؛ حيث لا تحتاج إلا رسم عدة خطوط متعامدة ومتوازية، وصنع ما يسمى بالقشاط، واستغلال بقايا الألواح المقتلعة من الأرضية أو الجوانب الداخلية، وتمضية الوقت الثقيل من خلال تحريكها يمينًا أو يسارًا، أعلى أو أسفل، فوق المربعات التي أنتجها رسم الأعمدة المتقاطعة والمتوازية، كانت أصوات الفرح بالنصر ومعايرة الخاسر هي التي تملأ فراغهم، أحيانا تنشأ شجارات صغيرة لا تصل إلى التشابك بالأيدي، ولكنها يغلب عليها الصياح والزمجرة، ثم تنتهي كما بدأت بلا عواقب مؤلمة.

عادت لهرموش قدرته على الشطح، فشطح بواحدة كانت مهداة إلى زميله وصديقه حواس، لعله يفهم قوة علاقاتهما، وديمومتها،

قال: قال عصفور كناريا لصاحبه، وهو ينظف القفص من الفضلات: «هل أنت معجب بصوتي أم بشكلي؟».

قال صاحبه: «بصراحة أحيانًا أجد صفيرك مزعجًا، أما ألوان ريشك، وانسياب قدك، أعطيهما كل إعجابي».

انزوى عصفور الكناريا في ركن من القفص يومًا، وبعده يوم، في النهاية كان قد اتخذ قرارًا بعدم الصفير نهائيًا، وبدأ يشغل وقته في تنظيف ريشه مرة وألف مرة.

لاحظ صاحبه توقف العصفور عن الصفير، قال: «هل أنت مريض؟ لا أراك تصفر!».

قال عصفور الكناريا: «لا.. لست مريضًا.. هل ترى نقصًا ما؟».

هرش الرجل رأسه، وهو يعلو وجهه غضب، صاح على الأثر: «أنت غريب أيها الكناري، تهتم بريشك طوال الوقت، وأهملت صوتك!!».

«لم يعجبك صوتي يا صاحبي قبلًا!!».

«ولن يعجبني لاحقًا».

«ولكن وجوده يكمل وجودي، تحلّ بالبصيرة يا صاحبي».

صاح الرجل: «ما معنى هذا؟!».

قال الكناريا: «معناه أن تقبلني كلي أو تفتح باب القفص».

بعد انتهاء هرموش جرت على القارب مناقشة طويلة، تفرعت إلى قضايا كثيرة متشعبة حتى نزل الليل، ونام الجميع.

يُحكَى أنَّ سلامة هرموش في صباح اليوم التالي استيقظ عكر المزاج، فالليلة الفائتة كانت لديه رغبة حاضرة بقوة، ولا فكاك منها أو لا هرب، في إتيان حلاله، إلا أنه لم يستطع، فالجزء الذي ظلت ألواحه الخشبية بلا خلع من أرضية القارب، والتي يمكن أن يضع جنبه فوقها مرتاحًا بلا نتوءات تزغد أجنابه عند محاولة النوم، صارت مساحة ضيقة جدًا، تنام الزوجة، ثم ينام هو، ويأتي بعده أي واحد من أفراد الشلة، كان الالتصاق بفعل التقلب على أي من الجانبين للجسم يثير ضيق الجار، ويسمع عند الاستلقاء للنوم الكثير من التأففات والزجر، وأحيانًا كثيرة اللعن، إلى أن يخمد الجميع تعبًا فيأخذهم النعاس.

يقال إن الصباح كان صباح الخيانة!!

اهتاج وهو ملتصق بمؤخرة زوجته، زامت وهي تنقلب وجهًا لوجه، ثم عادت سريعًا إلى وضعها الأول الذي أشعله من قبل، استطاع معرفة أنها لا رغبة لديها، أو أنها تنذره من خلال ما فعلته بوجود الآخرين، وأن المكان المحيط بهما معدوم الخصوصية. الآن يصحو فيواجه الخيانة.

لا أحد في القارب!!

عندما استيقظت زوجته وجدته يجلس مقرفصًا ناظرًا للاشيء!!

استقامت واقفة كاشفة سطح القارب، وفهمت ما حدث، عادت تقرفص بجانبه، قالت: الخونة أخذوا معهم جركن الماء العذب!!

بعد دقيقة صاحت، وهي تفتش في جيب فستانها، حتى أخرجت

مطواة بهنس، قالت: وهذه نسيها صاحبها معي.

يُحكَى أنّ:

«سلامة حجاج» أوقف أي دوافع تدفعه للسقوط في أزمة عاطفية تجاه زملائه وأصحابه، تجنبًا للتأسي والشكوى من الزمان وأفاعيله، كان ما شعر به ليلة أمس ما زال يقتحمه، اقترب من زوجته، أجلسها وقام بالتهيئة، وهي تجاوبت، أعطته وأعطى، حتى اكتملت المتعة، استلقى بجانبها في بطن القارب فترة لم يتبادلا فيها كلامًا، إلى أن تحرك مستقيما، قال لها إنه سيستحم في ماء البحر، قالت له: خذني معك.

يُحكَى أنّ:

يُحكَى أنّ الاثنين نزلا البحر على خوف ممسكين بحافة القارب، جميل، لا شيء يدعو إلى القلق، عليك الإمساك بيد واستخدام اليد الأخرى في الدعك، لكن ملح الماء سيظل عالقًا بجسمينا سلامة، إزالة الجنابة أهم، لكن يمكننا صب شوية ماء عذب فوق قطعة قماش والمسح بها، مضبوط سلامة، فكرتك رائعة، تفي بالغرض، ومن أين الماء العذب؟ ألم تخبريني بأنهم أخذوا جركن الماء العذب؟ معي زجاجة لا أعرف لماذا ملأتها منذ سقط المطر.. ماذا؟! ماذا؟ أنا واقف بقدمي على القاع، لم أغرق!! وأنا كذلك، البحر يصل ماؤه إلى صدري فقط!! وأنا كذلك.. أنا واقف بأقدامي على قاعه!!

يُحكَى أنّ اكتشاف عدم عمق البحر في المنطقة التي هما فيها على الأقل شجعهما على المغامرة، فاستمرا في التقدم نحو الجزيرة مع سحب القارب الذي انقاد لهما، رويدًا رويدًا كانا يتحسسان بأقدامهما

القاع قبل الخطو، خوفًا من مفاجأة نزولهما إلى عمق يغرقهما، مر الأمر بسلام حتى وصلا إلى الجزيرة، حشرا القارب بين نباتات بحرية كثيفة نبتت على الشط، صعدا إليه، وقاما بتجفيف جسديهما، بعدها ارتديا ملابسهما، وواصلا السير إلى قلب الجزيرة.

يقال إن سلامة حجاج أمسك بيد زوجته، وقال لها إن عليهما الذهاب إلى تلك المنطقة المكشوفة والمسطحة من الجزيرة، والتي أشار إليها خليل حواس بوجود الرمال التي تعالج الروماتيزم، الخبيث تحدث عنها هكذا مخفيًا الكنز الموجود، قال لها إنها عادة بعض الناس، يجد راحة في إخفاء الحقيقة بزعم يغطي على حقيقة ما بها، قالت له: ولماذا هذه المنطقة؟ أشارت عليه أن يذهبا إلى تلك البقعة التي بها كهف الرمال، فلهما مع الكهف ذكريات، ابتسم، وقال لها إن الطريق إلى الكهف لا بد له من المرور على منطقة الرمال أولًا، لا يعرف كيف امتلأ بالهدوء وعدم الانزعاج، وهو على جزيرة تبدو خالية؛ لأنه لم يسمع أصوات من يلعبون، وتذكر أن يوم شم النسيم قد مضى منذ أربعة أيام، وأن من صعدها غادر في نفس اليوم، رفع كتفيه لأعلى كأنه يرد على نفسه بأن لا خوف من أي شيء، هناك في مكان يعرفه عدة نخلات تثمر البلح، تذكر أنه ليس موسمه، فغيّر كلامه، قال إن هناك عدة شجرات جوافة متفرقة، أكبر الظن أنها نبتت من بذور بعثرها من يصعد إلى الجزيرة، ربما وجدت في بعضها ثمارًا تؤكل، ثم هناك سنارة بهنس سوف نستخدمها في صيد السمك، والحطب كثير من حوله، ومعه ولاعة، احتفظت بها زوجته ربما هي في القارب، سوف يسألها عند الحاجة إليها، تعثر في سمكة كابوريا رفعت مخالبها نحوه واستعدت لاستخدامها، تجاوزها محاذرًا،

ضحكت زوجته، كان على يقين أن بهنس سوف يعود ومعه فرق الإنقاذ، يعرف طبعه الملحاح، لن يهدأ إلا إذا استنفرت القوة جنودها ومعداتها لبداية البحث عن المفقودين.

يُحكَى أنّ حدسه كان مصيبًا؛ إذ عثر على خليل حواس وخريزة ومخيمر في بقعة الرمال، كانوا يخلعون ملابسهم إلا من ستر ضروري، وهم يقلبون الرمال، فيعثرون فورًا على قطع تباينت أحجامها من حجم الحمصة إلى حجم ليمونة من الذهب الخالص، على بعد منهم كانت هناك شجرة سنط عتيقة، مقيد إلى جذعها حمدي بهنس بحبل جدل من نباتات وحشائش وبردي الجزيرة، لف حول وسطه وذراعيه إلى قرب ركبتيه، وقيل إنه حين قفز إلى ماء البحر رأى أن المسافة بين القارب وشط المرسى أبعد من المسافة التي بين القارب والجزيرة، فاختار الجزيرة، يرتاح عليها يومًا أو يومين ليجدد نشاطه، فالنوم على القارب كان متعبًا، بعد حصوله على الراحة سوف يغامر بالسباحة نحو المرسى والمدينة.

يُحكَى أنّه عندما عثر عليه الرجال الثلاثة قاموا بشل حركته؛ لأنهم يعرفون أنه سوف يثير الاعتراضات، ويدعي الوطنية، والتصميم على عدم المساس بهذه الرمال، وسوف يبلغ السلطات عن هذا الكنز، كانت عيونهم حمراء ترسل لهبًا، وهم على بعد قصير من فعل شيء أكثر من تقييده، وأنهم ربما يفكرون في هذا الأمر عندما ينتهون مما هم فيه، فهم سلامة هرموش التلميح، وأسرع قائلًا إنه معهم قلبًا وقالبًا، أنسوا أنه المكتشف الأول، وواضع الخطة؟

هكذا قال إن أرض الرمال هي من اكتشافه، والرحلة من تدبيره،

ولكنهم شركاء، قالوا إنه معهم، وهم معه، وليس معنى أنه مكتشفها يعطيه هذا امتيازًا، سيكون شريكًا له نفس مقدار نصيب كل منهم أو الرفض، وعند رفضه ربما يكون موقفه صعبًا يجعلهم يختارون اختيارًا صعبًا، صاح: هل ستقتلونني؟!

أجابه حواس لماذا يضيع وقته ووقتهم؟ انزل وابدأ هرموش.

أجاب بسرعة إنه معهم بنصيب، وزوجته بنصيب، قال خريزة: لك فقط.

أسرع خليل حواس حسمًا لعدم الدخول في مهاترات، يقول إن لها نصيبًا، فقد حضرت حتى لو لم تفعل شيئًا، ثم كشف عن الكمية التي حصلوا عليها منذ مجيئهم ليلًا إلى بقعة الرمال، صفّر سلامة منبهرًا، إذ كانت الكمية تصنع ثلاث كومات تعلو إلى نصف المتر من حصى وأحجار الذهب الخالص، صاح: والله ولا في الأحلام!! البقعة فيها الذهب أكثر من الرمال!!

أعطوا الزوجة مهمة إعداد الطعام لهم وتقديمه.

قالوا إنها لو سارت في اتجاه شروق الشمس مسيرة أربع أو خمس دقائق فسوف تقابل حقلًا نبتت فيه عدة شجيرات من الباذنجان، تختلط مع شجيرات البامية والفليفلة الخضراء، نبتت هكذا دون رعاية، نتيجة مخلفات رواد يوم شم النسيم، هذه الخضراوات، إلى جانب أن عليها صيد الأسماك بسنارة بهنس التي تركت في القارب، وقد علموا منها أن القارب موجود إلى شط الجزيرة، حدد لها مكان ثلاث شجرات من أشجار الجوافة ما زالت تحمل ثمارًا، قال عنها إنها من ألذ ثمار الجوافة التي تناولها طوال حياته، قال هرموش إنه

يعرف مكانها، وسبق أن أكل من ثمارها قبل ذلك.

بعد هذا، اطمأن مخيمر على وجود القارب، وقد اقترح أن يصنعوا المجاديف من فروع شجرة السنط، أو أي شجرة صالحة أخرى يجدونها على الجزيرة وتصلح فروعها، وعدم الاعتماد على الماتور الذي ربما أصابه عطب ما، إلى جانب نفاد السولار اللازم ليجعله يعمل، بهذا يضمن لهم عودة مع الثروة.

كادت تقوم معركة إلا أن الآخرين حالوا دون ذلك؛ لأن هرموش اتهم مخيمر باغتصاب دور الزعيم، وقد سبق اتفاقهم على عدم تمكين أي واحد منهم من اعتبار نفسه المسيطر، والآمر الناهي. أقسم مخيمر بأغلظ الأيمانات أنه لم يقصد أن يكون كما وصف به، وأنه أصلًا ليس لديه قدرة على أن يكون قائدًا، هو راضٍ أن يكون فردًا من الشلة.

يُحكَى أنّهم بعد كل هذا أضافوا مهمة أخرى إلى مهام الزوجة، هي إطعام بهنس وهو مقيد إلى الشجرة، ففعلت، أما إذا أراد قضاء حاجته فيقوم رجل منهم بالتناوب بفك قيده، واصطحابه إلى مكان بعيد ليرتاح، ثم يعود به إلى الشجرة، فيتم تقييده من جديد.

قالوا لها أن تذهب إلى القارب لتحمل الوعاءين الألمونيوم لزوم الطبخ، وكذا الموقد، فإن كانت لا تريده يمكنها إنشاء موقد آخر من حجارة الجزيرة، قالوا لها إن في منتصف الجزيرة مساحة تنشع بالماء والملح، يمكنها جمع الملح وتعرضه للشمس يومًا ثم استعماله بعد ذلك، ازدادت معها غواية الذهب الذي يستخرجونه بسهولة غير عادية، فالأمر لا يحتاج لمعدات معقدة أو آلات ضخمة لاستخراجه،

هنا في هذه البقعة العجيبة يمكنك أن تحصل على المعدن الثمين بمجرد تقليبك للرمال!!

يقال إن الزوجة قدّمت في هذا اليوم وجبة مكونة من السمك المشوي إلى جانب الوعاء الكبير الممتلئ بخرط الباذنجان والفليفلة المطبوخة وملح مضبوط، أعطى للطعام مذاقًا غاب عنهم عدة أيام، ثم أعطت لكل واحد ثمرة جوافة كتحلية، أشادوا بنفَسها في الطبخ، ولكنها أرادت حجرين، الواحد منهما ملء الكف من الذهب، اندهشوا وقالوا لها إنها سوف تملك قريبًا آلاف الأحجار، قالت إنها تريد ما طلبت الآن، أما ما سوف يكون فيُترك لوقته، حواس قال لها لتأخذ ما تريد، الخير وفير، ومثقالان من الذهب لن ينقصا الحصيلة.

ضحك جدًا بعد كلمة الحصيلة، لم يعرف أحد منهم لماذا سببت هذه الكلمة ضحكه المنفجر والمتواصل لدقيقتين كاملتين، حتى تصور هرموش أنه يسخر من زوجته، فصرخ في وجهه: «خليل، اتزن وإلا...».

صاح خليل حواس: «لا أقصد والله.. الكلمة لها وقع في نفسي يثير ضحكي، سوف أحكي لكم عند الاستراحة الليلية مناسبتها».

أخذت الزوجة الحجرين، كلًا في يد، وابتعدت عن الشلة، جلست خلف أجمة من الحشائش والبوص، ظلت تتأملهما، سوف تذهب بنفسها إلى سوق الصاغة، هناك محل معين ستكلفه بصناعة عقد وحلقين على هيئة قلب منهما، قالت إنها لن تبيع حصتها، ولا أي جزء منها، ستحتفظ بكل الذهب!!

يُحكَى أنّه في بحثها عن أي شجيرة لخضار ما، أو شجرة لفاكهة

ما، وجدت بركة صغيرة إلى جانب منها رأت بزبوز ماء صغير هناك إلى جانبها يغذيها نبع فتحته ضيقة جدًا، مالت تتذوق الماء، دهشت لطعمه العذب، رجعت إليهم، وجدت الجركن مركونًا إلى جانب مساحة الأرض المحتوية على الرمال، وهم في منتصفها يقلبون ويحصلون على قطع الذهب، رفعت الجركن، وجدته فارغًا، صاحت باكتشافها الماء العذب، توقفوا عن تقليب الرمل واصطياد الذهب، صاحوا: أتتحدثين بجد؟!

قالت وهي تمضي راجعة إلى حيث بركة الماء العذب، إنها سوف تملؤه ليصدقوا.

شيعوها بأنظارهم.

«الجزيرة جزيرة خير، تعطينا كل شيء طيب».

«نستطيع أن نقضي أيامًا عديدة دون أن نعاني جوعًا أو عطشًا».

اتفقوا أن لا بد من الحذر، وأن عليهم إضافة مسؤولية المراقبة لزوجة الأستاذ هرموش، وتكليفها بإخبارهم أولًا بأول، لو رأت أي قارب يتقدم نحو الجزيرة، حتى يكون لديهم الوقت لإخفاء أي أثر يفضح ما تحتويه هذه الرمال من كنز.

يقال إن مصير بهنس المقيد إلى الشجرة المطلة على أرض الرمال، لم يفكروا فيه علنية، إلا أن صمتهم كان يحمل تفكيرًا متروكًا للزمن، لم يكن في تقديرهم هذا أي نوع من اعتبار للصداقة أو رقة طبع مقابل وجوده بشحمه ولحمه ولسانه، فقد وقر في نفوسهم من الأصل أن وجوده يمثل خطرًا على وجودهم وأحلامهم!!

عندما رجعت الزوجة إلى بركة الماء العذب، رأت عدة طيور من طيور الشرشير المحندق، ووجدت حولها من الجانب الذي لم تدخل منه، عدة أعشاش أرضية لطائر السمان، تركت الجركن على الأرض، حينما داست على العشب الجاف صدر عن قدميها صوت، انطلقت طيور الشرشير محلقة بعيدًا، ورأت أكثر من سمانة تجرى، وهي تحني رقابها، لتختبئ في أعشاشها، ابتسمت لنفسها قائلة: يا له من طائر طيب، كأنه يدعوني للإمساك به، وأنا سألبي طلبه.

جمعت من الأعشاش بهدوء وسهولة خمسة أزواج، واكتفت، عندما مدت يدها في العش الأول وجدت زوجًا، أخرجت الزوج واحدًا بعد واحد، ربطت الجناحين بعضهما ببعض فشلّت حركة السمانة، وهكذا في البقية، ملأت الجركن، وعادت لتشرب، قالت: طعم الماء عذب جدًا غير أي ماء!!

ابتعدت عن البركة بمسافة كافية، أخرجت مطواة بهنس التي ما زالت معها، وقامت بذبح الخمسة أزواج من طائر السمان، انتظرت حتى همد تمامًا عن أي حركة، ذهبت في مشوار إلى نخلة كانت رأتها على نفس طريقها، وهي تنبت من الأرض إلى طول قامتها، خلصت خوصتين أو ثلاث من أحد فروعها، استعملت الخوص أربطة لأرجل السمان حتى جعلته في حزمة واحدة في النهاية، حملته وحملت الجركن، عادت إليهم، قالت لهم إنها ستحضر لهم عشاء فخمًا، نظروا إليها مستفسرين، قالت، وهي ترفع حبال الخوص بما فيها: سمان من خير الجزيرة.

قال قائل: ألم أقل لكم إن هذه الجزيرة نبع خيرات؟

أخبروها بمهمتها في المراقبة فوافقت، وقالت إن ذبابة لن تستطيع دخول مجال الجزيرة دون أن تراها وسوف تبلغهم فورًا.

قالوا عنها إنها نعم الزوجة، مطيعة ولديها نشاط وحيوية، ابتسم الرجل معتبرًا ما قالوه نيشانًا يُعلّق على صدره.

[29] يُحكَى أنّ:

الزوجة اكتشفت وجودها في جولة من جولاتها، شجرة زيتون، ذات فروع كثيرة، وجاءتها الفكرة، قطعت عدة فروع غليظة وجلست تشكل بالمطواة عدد ست أو سبع ملاعق خشبية، وكان لها ما أرادت، خلعت عن الفرع ما يحيط به من لحاء، وأبقت على جسد الخشب، كشطت الزوائد، وأتقنت الصنعة، في النهاية كانت الملاعق الست أو السبع تحفة، على بعد من شجرة الزيتون وجدت شجرة جميز صغيرة، ولكنها محملة بثمارها، توارد على ذهنها ما كان جدها يفعل مع شجرة الجميز على رأس داره، عندما كانوا يزورونه، صعدت على الجذع الرئيسي، وأخذت تختن ثمار الجميز بسلاح المطواة، تعرف أن القطعة الصغيرة المقطوعة من الثمرة سوف تجعلها تنمو ومعها عسلها الخاص، فتزداد حلاوة، انتهت بعد أن راحت بيدها الممسكة بالمطواة إلى كل الفروع المثمرة، قالت سوف تفاجئ الشلة بالثمار اللذيذة بعد يوم أو يومين، حينما يتغير لونها من الأخضر إلى البني الشاحب، إلى يسارها سارت، واجهها جذع شجرة واضح أنها قطعت من زمن بعيد، ليس هذا هو المهم، المهم هذا النحل الذي اتخذها ملجأ، واشتغل على قرصين كبيرين من العيون السداسية المملوءة بسائل العسل اللذيذ، معها الولاعة، وحولها حطب وفير، لتصنع دخانًا يسطل النحل، وقد كان، خلعت عن نتوء في جذع الشجرة القرصيين، حملتهما معها، انتبهت إلى أنها لا بد في جولاتها الآتية عليها تعليق حقيبة خريزة التي عثرت عليها بالقارب على كتفها، لتضع فيها ما تعثر عليه، ليسهل الحمل، وتحصل في نفس الوقت على أكثر من شيء مما تجده.

عندما رجعت كان معها إلى جانب قرصَي عسل النحل قرون بامية جمعتها، بحثت عن سلق فوجدته نابتًا هكذا إلى حواف البركة الصغيرة في نشع أرضها، مع نبات آخر عرفته فورًا هو الحُمّاض، استطاعت التفريق بينهما، ابتسمت لنفسها، وأجّلت جمعه ليوم آخر لتقديمه مطبوخًا مثل السبانخ، في ذهنها الآن اكتمال طبخ البامية بهذا السلق، ليعطيها نكهتها المميزة في البيوت، كان ينقصها السمن أو الزيت، هل يمكن استخدام قرصي العسل بعد عصرهما وإبقاء شمعهما كزيت؟ لا لا ينفع فهما من الشمع وليس الزيت.

وقفت مذهولة.. من زرعها؟! قبل هذا السؤال سؤال: من جاء بها هنا، ورمى أو غرس بذرتها، كانت نخلة زيت، هل كل ما تفكر فيه تعطيه لها هذه الجزيرة؟!

كانت النخلة محملة بسباطات تنز زيتًا، احتارت، عرفتها فورًا، كان هرموش قد اشترى عبوة من سوبر ماركت لديه تخفيضات، تلتصق عليها صورة للنخلة، وشيء عن موطن زراعتها، واستخدامات زيتها، تأملت النخلة، قالت: «وُجدت لنا».

ولكنها رجعت تقول: زيت النخيل خالٍ من الدهون المتحولة، ولكنه يحتوي على نسبة عالية من الدهون المشبعة، ما يجعله غير صحي، قالت: أنا قرأت ذلك، عادت تسترجع ذاكرتها، قالت: ولكن تفيد دراسات لم أعد أذكر منطوقها بالضبط، ما زلت أتذكر الخلاصة، بأن زيت النخيل يحسن صحة القلب والأوعية الدموية ووظائف الدماغ.

ليس لديها وعاء أو زجاجة لتصب فيه زيت النخيل بعد عصر الثمار التي تميل إلى اللون الأسود، فكرت ثم اهتدت إلى فكرة،

كانت تحت أقدامها نبتة امتد خضار أوراقها أسفل جذع النخلة في امتداد مساحة لا بأس بطولها وعرضها، كانت ثمارها اليقطين، بحثت حولها، وجدت ثمار يقطين ربما مر عام عليها أو أكثر، حتى تحول لونها الأخضر إلى الأصفر، وماتت عن غصنها، قطعت منها أربع ثمار، وجدتها خفيفة الوزن، فعرفت أن لبها قد جف، ثم بدأت تخلي ما بداخلها، قالت: سوف نحصل على أوان مثل زجاجات الزيت.

سمعت نداء زوجها لها، انتبهت أنها غابت عنهم مدة طويلة، ولكن لا بأس، سوف تعصر ثمار البلح لتستخرج زيتها في هذه الأواني من ثمار اليقطين، وتستخدم منه في طبخ البامية، كانت تحتاج لبعض فصوص الثوم، بعد البركة بعشر خطوات وهي ذاهبة إلى حيث بقعة الرمال، وجدت قطعة أرض مترين في مترين مزروعة إما عمدًا أو لا عمد برؤوس الثوم والبصل في خليط بين الاثنين، تلفتت حولها وهي مندهشة، أكلما فكّرت في شيء وجدته؟!

كانت الجزيرة تعطي لهم كل ما يفكرون فيه، لم يتوقفوا عند هذا كثيرًا، كما قال أحدهم سابقًا إن عليك أخذ ما تمنحه لك الأقدار دون تفكير، أو ما يشبه هذا القول من معنى الأخذ، وعدم السقوط في بحر أسئلة لا إجابة لها، أو ربما تكون السبب في خسرانك ما مُنحت!!

يقال إن:

كل ما فكرت به يتحقق، وأنها ما كان لها أن تتعب نفسها وبدنها في محاولة الحصول على عسل أو بصل أو ثوم، كل ذلك متوفر، ما كان عليها إلا أن تزيح أغصان شجر وكمية من البوص تخفي تحتها بابًا من الخشب البالي، فوجدت سردابًا، تملكتها جرأة، ونزلت إليه، سارت

بين جوانبه، فإذا هي بين ما يشبه المخزن الذي به من كل بضاعة وفرة، زجاجات زيت الذرة، وعبوات زيت دوار الشمس، وزيت بذرة الكتان، وعبوات السكر، والدقيق، والنشا، والسمسم، والفول الصالح للتدميس، هووه.. هووه.. كلما نظرت أو فتشت وجدت خيرًا، وقفت مذهولة، كأن هناك من أعد كل هذا لهم، هل سبقهم أحد؟

أيمكن أن يسبب هذا الأحد خطرًا على أفراد الشلة وزوجها؟ قالت إن عليها تنبيههم، والاكتفاء بما حصلوا عليه، وركوب القارب بحصيلتهم والرجوع إلى مدينتهم، كانت تريد تجربة حياة العز والرفاهية بسرعة في محيطها من ناس وأقارب ومعارف، كانت تستعجل الدخول إلى دنيا جديدة!!

[30] يُحكَى أنّ:

الزوجة قدمت لهم في هذا اليوم لحم دجاجة مشمرة محمرة، لحصولها عليها حكاية. وقفت خلف أجمة بوص ونبات بردي، سمعت نقنقة، أبعدت ما بين سيقان البوص والبردي، فإذا بها تجد قبيلة من الدجاج تلتقط ما تجده في الأرض من حب بذور أو حشرات أو ديدان، جعلت تقترب بهدوء، ثم رمت ببدنها فجأة بين قبيلة الدجاج، فاستطاعت أن تقبض على واحدة تفي بأكلة اليوم، وحتى تفكر في وضع خطة للإمساك بالبقية، وحجزهم في عشة سوف تقيمها قريبًا من منطقة أرض الرمال. سوف تحدث زوجها بالأمر، فهو مغرم بتربية الدواجن، وله رأي في هوجة إنفلونزا الطيور، وتحريم وتجريم تربيتها في البيوت أو على سطوحها في خزائن من الخشب أو الأقفاص الجريد، بحجة تفشي المرض، كان يردد باستمرار أن القرار جاء لمصلحة تجار وصناعة تربية الدواجن، عرفت منه أن هذه الكلمات سمعها من بهنس عرضًا، في إحدى الأمسيات على مقهى كانت بقية الشلة تجلس عليه دائمًا، ولما أظهرت دهشتها، قال إن حديث بهنس في هذا الأمر وجد قبولًا منه، دونًا عن بقية آرائه في أي شيء!!

كانت الدجاجة مطبوخة مع صينية من البطاطس، معمولة بشرائح البصل والفليفلة، أضيفت إليها كسبرة خضراء وبقدونس، وأرز أبيض مطبوخ، مضاف إليه حبات من زبيب، أنضجت كل هذا بسمن بلدي!!

«يا وعدي يا وعدي يا وعدي!!».

نظر إليها زوجها مندهشًا ومتسائلًا، أخبرتهم بما رأت، وبينت لهم

شكوكها، قالوا لها ألا تحمل همًا، عليها المراقبة وإبلاغهم بحيث يستطيعون حمل ما جمعوه فورًا وإخفاء آثارهم، والجري نحو القارب في خفية عن أعين من صعد الجزيرة، ومن ثم الإبحار إلى وجهتهم، رغم أن حديثهم به تخبط وعدم تركيز إلا أنها صمتت، وهي ترى بريق الذهب مكومًا، الآن صار في خمس كومات، يا لهذه الوفرة؟!

يقال إن خريزة بدأ يطلب نوع الطعام الذي يحب تناوله على الغداء في اليوم المقبل، شاركوه في هذا، تناوبوا على طرح مشتملات الوجبة، ثم يدور نقاش على أساسه يستقر في النهاية على رأي واحد، وعليها أن تنفذ. كانت سعيدة بتلقي التهاني والإعجاب بقدرتها على الطبخ بحرفية عالية الجودة، أصبح لديهم موقد بوتاجاز له أنبوبة تمده بالغاز، قالت الزوجة إن المخزن تحت الأرض به أكثر من خمسين أنبوبة مشابهة، هزوا رؤوسهم، وهم يحتسون الشاي في أكواب زجاجية، والمعمول في براد كبير من الألمونيوم، كل هذا عثرت عليه في المخزن. طلبت منهم أن يقتطعوا دقائق من وقتهم لرؤية هذا المخزن، ولكنهم قالوا لماذا نراه؟ يكفي أنه موجود، وأنها وجدت فيه كل ما يجعل حياتهم على الجزيرة مقبولة.

كانوا يسمعون ضحكات بهنس الساخرة، وهو يقول: «يتسع الوهم يتسع.. يا شلة البؤس شغفكم بالحصاد لن يورثكم إلا الشقاء».

«أيها الفقير أنت تحب الفقر فنقطنا بسكاتك».

بعض واحد منهم كان يعلّق بألا ينتبهوا إليه، فهذا الثرثار خلقة من البشر، إذا أمسكت الخضراء في يدها تصير صفراء جافة.. لا تهتموا.

نظروا نحو هرموش يطلبون إحدى شطحاته التي يؤلفها من خلال موقف عاشه أو رآه، إلا أنه قال بفراغ ذهنه من أي تأليف، فهو مشغول بما يشغلهم، جمع المعدن النفيس، ولا شيء آخر، لذا لا ينتظرون منه حكمة أو شطحًا أو تأليفًا، وتساءل: هل يعادل أي شيء الذهب يا أصحاب؟!

صنعت لهم الزوجة لقمة القاضي المغموسة في عسل النحل بديلًا عن السكر، أشادوا بها، إلا مخيمر صاحب القارب الذي قال إنه يحبها بمحلول السكر كما تعود أن يأكلها، كان طبق كبير دائري الحواف يمتلئ بكرات لقمة القاضي موضوعًا فوق حجر، يتناول منه من يريد بين الوجبات الرئيسية، طلبوا منها بسبوسة بالمكسرات، بحثت في المخزن عن المكسرات فوجدتها مقشورة جاهزة في أكياس، تناولت من عين الجمل حبتين ومن اللوز حبتين ومن البندق ثلاث حبات، واكتفت خوفًا من أن يسببوا لها إسهالًا، فهي لها مع هذه المكسرات تجربة، حملت طبقًا عميقًا به من هذه المكسرات، وأضافت إليها الفستق والكاجو، طيرت عقولهم حينما عزمت عليهم، كبش كل منهم كبشة وأسلمها إلى فمه، صاحت أن هذا خطأ، وأن على كل واحد أن يتناول حبة واحدة من كل نوع ليشعر بمذاقها قبل أن يختار واحدة من نوع آخر وهكذا، تضاحكوا وقالوا لها ألا تهتم، قد يفعلون ما تشير عليهم به في زمن ومكان وظرف آخر.

[31] يُحكَى أنّ:

خليل حواس وهو يقلب في الرمل عثر على قطعة من الذهب أكبر من كل ما عثروا عليه قبلًا، كانت قطعة في حجم تفاحة، وضعها في جيبه، رآه كل من هرموش ومخيمر صاحب القارب، فصاحا في وجهه أن يضعها على آخر كومة جمعوها، امتنع حواس عن إخراجها من جيب القميص العلوى وضمها إلى حيث طلبا منه، ترك هرموش مكانه قفزًا حتى آخر قفزة كانت فوق أكتاف حواس، جرى خريزة ومخيمر لفض الاشتباك، واستثنوا لحظتها شئّة، هي أن من يجد قطعة ذهب تعجبه وأراد الاحتفاظ بها لنفسه كان من حقه أن يحتفظ بها، عندها تراجع هرموش راضيًا بما توافق عليه الجميع، وطلب من حواس إخراج قطعة الذهب ليراها جيدًا، فأخرجها من جيبه، كانت في حجم التفاحة وتكاد تشبهها، تعجب الآخرون من التشابه، وقالوا إن الطبيعة لها تجليات لا يحيط بها عقل، وتظل بقعة الرمل وما تخبئه من كنز عجيبة من العجائب لا يصدقها أحد فيما لو تليت عليه قصتها!!

[32] يُحكَى أنّ:

سلامة هرموش حاول أخذ زوجته بعيدًا عن الرجال الثلاثة، حتى يناما بلا مضايقة، إلا أن الرجال الثلاثة لاحقوهما، فكلما أعدّا مكانًا للنوم بعيدًا عن أرض الرمال، وجدا من يتبعهما كل ليل. ووقع هرموش في حرج أن يكون صريحًا في المطالبة بشيء من الخصوصية، لما قد يتبادر لأذهان الرجال أنه يطلب ذلك من أجل الانفراد، وما يوحي به، مع أنه كلما ناقش الوضع بينه وبين نفسه وجد أن الانفراد حق من حقوقه الأصيلة، والتي كان ينبغي على الرجال الثلاثة مراعاتها، والعمل على توفيرها له ولزوجته دون ملاحقتهما هكذا، ما هذا الغباء؟!

يقال إنه ليس غباء، بل فعل متعمد من الثلاثة رجال، حتى يكون هرموش وزوجته تحت أعينهم، بصرف النظر عن توفير خصوصية لهما، فهذا ليس ما يفكرون فيه، كان كل رجل منهم رقيبًا على البقية، لا ينبغي أن يغيب أحد منهم عن أعين الآخرين، أما ترك الحرية للزوجة فهذا لتأكدهم أنها لن تترك زوجها وتغادر بكمية من الذهب على قدر ما تستطيع حمله، فهي لن تستطيع قيادة القارب في هذا البحر وحدها، إذن سلوكهم ليس سلوكًا عدائيًا تجاه زميلهم وزوجته، أو يقومون به لمضايقته، أو حبًا في إغاظته.

لم يفهم هرموش هذا؛ بل زادت عصبيته، وبدأ إثارة المتاعب، فهو يسبقهم في مساحة الرمل ثم يهيل عليهم الرمال، بحجة البحث عن حبات وحجارة الذهب، أو يعيد ما جمعوه للرمال مرة أخرى، أفعال وصفها حواس بالصبيانية، واضطر أن يعلن له معرفته لسبب حالته،

ويطلب منه بلا حرج أن يمسك نفسه ويصوم عن رغباته هذه الفترة.

ضدم من حديث زميله وصاحبه، وكأن ما قاله إهانة له، حاول أن يرد بقسوة إلا أنه صرخ وتلوى على الأرض ممسكًا بشقه الأيسر، مع غزارة عَرقه، وتقيُّئِه بعنف وألم شديد، لم تكن الزوجة حاضرة في تلك اللحظة، ووقع البقية في ارتباك، كيف يتصرفون؟ كان يصيح بين تأوهاته: «مغص كلوي ملعون، أريد حقنة مسكن.. أريد حقنة مسكن».

صياح بهنس هناك عند الشجرة المربوط إلى جذعها، يختلط بصياح وأوجاع الموجوع: «أعطوه مسكنًا ثلاث حبات من الذهب مختلفة الحجم، قبل الأكل وبعده.. هاهاهاهاه».

يقال إنهم تعاملوا مع تعليقات بهنس ببرود، كأنه غير موجود، وغير الموجود لا كلمات له أصلًا!!

حواس أخذ رأس هرموش على حجره يمسح عرقه، ويعطيه شربة ماء، إلا أن عنف المغص جعله يبكي من شدة الألم، وقال إنه سيموت، قال له صاحبه: يا رجل إنه مغص، لن تموت، وعليك أن تهزمه، أجابه: أي شيء أهزمه يا خليل؟! رد بسرعة: المغص. صرخ سلامة هرموش: إلهي يصيبك المغص يا خليل وأشوفك وأنت تهزمه!!

كلامه بهذه الطريقة جعل خريزة ومخيمر يضحكان كأنه قال نكتة، شاركهم حواس ثم الموجوع نفسه، يعتدل ويستقيم، مبتعدًا عن أرض الرمال ممسكًا شقه الأيسر، وهو يئن.

عندما حضرت الزوجة تركت ما في يديها من أشياء تخص طبيخها

اليوم، وأسرعت راجعة إلى حيث المخزن، بحثت عن سلة ليمون كانت عثرت عليها، بعضه أصابه العطب، والبعض ما زال صالحًا، انتقت من الصالح خمس حبات، ثم بحثت مرة أخرى بين زجاجات الزيت حتى عثرت على زجاجة زيت زيتون، رجعت بسرعة إلى حيث يستلقي زوجها، كانت قد قرأت في كتاب التداوي بالأعشاب عن الوصفة، وأخذت تعدها: إضافة ستين ملّي من عصير الليمون إلى ستين ملّي من زيت الزيتون، ثم مزجهم جيدًا، وتناول المزيج بعد ذلك، حيث يساعد في التخلص من المغص الكلوي الناجم عن حصوات الكلى، وضعت رأسه على صدرها وجعلته يشرب، بعد أول جرعة حاول إبعاد يدها التي تمسك بالكوب، ولكنها نهرته، وجعلته يكمل شرب ما في الكوب كله.

بعد ما يقرب من الثلث ساعة نهض زوجها، ونزل منطقة الرمال، وأول ما مد يده وجد منطقة حجرية أخذ يحاول معها إلى أن صاح فجأة: جواهر!!

[33] جاء إليه الرجال الثلاثة، كان يمسك بحجر أحمر اللون، أخذه منه حواس ورفعه عاليًا في مقابل ضوء الشمس، صفّر بشفتيه قائلًا: هذا ياقوت والله أعلم.. أين وجدته بالضبط؟

في تلك البقعة التي عثر فيها على الحجر الكريم، امتدت أيدي الرجال الأربعة في الحفر، بعضهم استعمل عصا مما يوجد في المكان ليحفر بها، أما مخيمر فاستعمل المفتاح الكبير المعلق بخيط حول رقبته، قطع الخيط، وتخلص منه، وبدأ يحفر به.

بعد مدة بدأ بحثهم ينتج أحجارًا، بعضها لونه أخضر، قال عنه حواس إنه زمرد، سألوه من أين يعرف؟ قال إنه يقلب كثيرًا في «اليوتيوب»، يشاهد البحث عن الأحجار الكريمة ووصفها، وأن هذا واكب حلمًا في أن يعثر عليها من جبال البحر الأحمر، ولكن السفر إليها والبحث فيها ليس مواتيًا، عندما اكتشف قطعة الرمال على هذه الجزيرة استبدل حلمه بالأحجار الكريمة بالذهب، ولكن الله أراد مكافأته، فحصل على الاثنين دون بذل مجهود كبير، صارحهم القول بأن الفضل يرجع في معرفته لأنواع الأحجار الكريمة إلى هرموش دون قصد، فمنعه من الذهاب وصعود الجزيرة لمدة عام، جعله يقلب في «اليوتيوب» عن التنقيب، فالتقى بالأحجار الكريمة، وكيف يعثرون عليها، وتعرف على أنواعها، وقيمة بعضها، وكيف يعرف الحجر الكريم واختلافه عن الحجر العادي، مع أن اللون واحد، والشكل خادع.

أخذهم نحو الضوء، ورفع الحجر، قال: انظروا عندما يتعرض الحجر الكريم للضوء فسوف يقوم بكسر الإضاءة، ويُظهر بريقًا عاليًا،

أرأيتم؟

ثم استدار ليمنع الضوء عن الحجر، قال: انظروا، إذا وُضع الحجر الكريم بالظلام فسوف يظهر منه لون بنفسجي من خلال الضوء الذي ينطلق منه، أرأيتم؟

قدّمت الزوجة غداء اليوم صينية من السمك السنجاري بالثوم والليمون، مع أرز تحايلت على تلوينه باللون البني بواسطة حرق بصلة كبيرة في الزيت، وتم دعكها في ماء فأعطت اللون عندما أضيفت إلى الأرز، ثم استقر لونه البني بعد النضج، وضعت بجانب كل هذا عيدان جرجير جمعتها من عدة أماكن بالجزيرة، أثنوا عليها، ولكنهم توقفوا عن الأكل، فقد سمعوها جيدًا وهي تقول: ألم يئن الأوان للرحيل؟ لقد أوحشها أولادها، يا ترى ماذا يفعلون في غيابها وغياب أبيهم سلامة هرموش؟!

يُحكَى أنّ:

الجميع -حتى زوجها- اندهشوا من أن أحدًا يطلب منهم التوقف عن جمع حبات وقطع الذهب والأحجار الكريمة، فطاقة كل منهم موجهة لهذا الجمع، لا يرون إلا الجمع، ولا يتصورون أن يقال لهم: كفى!!

تحولت دهشتهم إلى زمجرة، ثم إلى زجر لها، ورفض أن يكون لها حق في فرض رأي، صرخوا في وجه زوجها: «أخرسها يا رجل».

يُحكَى أنّهم سمحوا له بالاختلاء بها، غابوا بحجة ذهابهم للاطمئنان على القارب، ذهبوا إلى حيث يوجد محشورًا بين نباتات

البوص البحري، عاينوا ما أصابه من خراب، لم يهتموا بإصلاح أو ترميم، لم يصبروا على وجودهم بعيدًا عن منطقة الرمال، كانوا يقرفصون ناظرين إلى اتساع البحر، وإلى أمواجه التي لا تنتهي، شعروا بالضياع في هذا المكان، استقاموا مغادرين، قالوا: هيّا إلى ما يهمنا، أوقفهم واحد منهم متسائلًا: «هل يمكن للمرأة أن تهدم تجمعنا؟!».

كانت المرأة قد تساءلت: هل لا يشتاقون لبيوتهم؟ وأماكنهم التي يحبونها، ويحبون ارتيادها؟! وأصحابهم واستعادة الذكريات معهم، أو مشاهدة التليفزيون؛ سواء كان يعرض المسلسلات أو مباريات كرة القدم؟!

يُحكَى أنَّ:

عندما تأخر الغداء عن موعده، ولم تحضره الزوجة، خرج خريزة من حدود أرض الرمال قائلا إنه سيبدأ ليكون الأول في الدور، وبعده يأتي مخيمر، ثم خليل حواس، وفي النهائية يكون هرموش آخر من يكلّف بإعداد طعامهم، وبعده يبدأ الدور من جديد، عرف بأن زوجته لم تعد موجودة، كان منشغلًا مع منطقة حجرية تعج بالأحجار الكريمة التي عليه استخراجها، وغسلها بالماء، وتعريضها للضوء وتأمل جمالها، قال فقط إن على خريزة الإسراع بالوجبة لأنه يشعر بجوع شديد!!

كانت ملاحظة الجوع الشديد تستوقف الجميع؛ حيث أقروا بشيء عجيب، هو أن طعام الجزيرة لا يشعرهم بالامتلاء أو الشبع، بل هم في شعور دائم بالجوع، لم تكن ملاحظة جانبية وينتهي الأمر، هم

بالفعل يأكلون ولكنهم يشعرون بالجوع، كأنهم مصابون جميعهم بمتلازمة مقاومة الإنسولين، عندما كانوا بالقارب كانت وجبة واحدة تكفيهم أو حفنة من الفول السوداني مع حفنة من بذور دوار الشمس، أما هنا على الجزيرة فلا يشبعون، كالعادة أمام معضلة لا يجدون لها إجابة فيصرفون النظر عنها، مع أنهم في حالتهم كان يعضهم الجوع ويتألمون، ويصرخون في وجه مَن عليه الدور في إعداد الطعام بسرعة وإنجازه!!

يقال إن بهنس المربوط إلى جذع شجرة تطل على أرض الرمال فَهِمَ ما حدث، قال لنفسه إنه ما كان يتصور أن يفعلوا ما فعلوه إلا تحت سيطرة جنون خاص، أرجعه لأرض الرمال، في البداية أراد أن يفضحهم أمام جريمتهم، ولكنه فكر وهدأ، وتراجع عن فعل ما سولته له نفسه، والتزم الصمت؛ لأن ما فعلوه مع الزوجة سيفعلونه معه، كان صمته استغراقًا في التفكير، لعله يصل إلى كيفية ما يحرر بها نفسه، على أن يكون ذلك سريعًا قبل أن يقرروا التخلص منه!!

[34] يُحكَى أنّ:

أحدهم رجع على عجل مبهور الأنفاس على وجهه فزع، صائحًا بأن هناك غرباء معهم على يابسة الجزيرة، خرج إليه الثلاثة الآخرون، قالوا له أن يتنفس بهدوء، ثم يخبرهم ماذا رأى؟

أعاد إخبارهم بأنه رأى رجلين أحدهما يحمل كاميرا ديجيتال وثلاث نساء، ينزلون من قارب حديث من قوارب الدورين، صاحب الكاميرا كان يشير للنساء الثلاث بأن يُحطن بالرجل الثاني، وقمن بالتعارك بينهن حتى تفوز واحدة منهن تحتضنه ويحتضنها، ويميل عليها مقبّلًا لها، بينما الرجل الذي يحمل الكاميرا يحركها في اتجاههم، ثم يرفع يده ضاحكًا مبعدًا الكاميرا عن زاوية التصوير، فقد انتهى.

يُحكَى أنّهم تقاربوا بالرؤوس، ثم قرروا الذهاب إلى حيث رسا الغرباء بقاربهم والنظر بحذر لما يفعلون، وهل يمكثون على الجزيرة وقتًا أطول؟ وماذا عليهم أن يفعلوا. قال سلامة هرموش إن الأهم ونقطة المركز هي هؤلاء الغرباء، وماذا سيفعلون، أراد اقتراحات وانتظر بضع دقائق، ليفكر كل منهم في فكرة من خلالها يتعاملون مع المستجد، وهو وجود أناس معهم على الجزيرة.

كانت الفكرة التي وجدت ترحيبًا من الجميع، وأجمعوا على تنفيذها، هي أن يكذبوا، وكذبهم يكون حقيقيًا لا زعزعة في متنه ولا تردد، بأنهم ملاك هذه الجزيرة، وهم مقيمون على أرضها، وهم يرحبون بالزائرين طالما مكثوا في مكان واحد، ولا يعيثون في أنحاء الجزيرة بلا ضابط. إذن عليهم أن يؤكدوا للأغراب أنهم

المرجعية، وعلى من يطأ أرض الجزيرة أن يبيّن سبب مجيئه، والمدة التي سيمكثها فوق أرضها، كما أن هناك سعرًا يُدفع من أجل هذا، نعم سِعر، فهذا سيضمن صدق أكاذيبهم.. صدق أكاذيبهم؟! نعم فإن كنت كذابًا فكن صادقًا في كذبك، لا يشتم من تمارس عليه كذبك أي تردد أو عدم ثقة في حديثك، ثم في حالتنا العمل على ألا يصل أي واحد من الأغراب إلى أرض الرمال أبدًا، يقال إنهم سألوا هرموش فجأة: هل زجاجة النبيذ ما زالت معه؟!

اضطر أن يقص عليهم أنه يوم أن أظهر المدعو بلتاجي جبروته على من يوجد بالقارب، بعد أن أصاب مخيمر، أتتذكرونه؟ نعم هو صاحب الثأر الذي أخطأ في تتبع ثأره، أقول لكم الآن لقد استولى على زجاجة النبيذ، وشرب ما بها وحده، بل وجّه لهرموش سبابًا حين طلب منه ألا يشرب ما بها في جرعات كأن النبيذ ماء، هذه نصيحة لتذوق النبيذ، ولكن العبيط لم يفهم إلا أنه مسيطر، وصاحب الأمر والنهي، عمومًا كانت فترة قصيرة، والمهم هو مصيرنا الآن، الحمد والشكر أنه لا يشاركنا ما نحن فيه، فهو لا يستحق مشاركتنا.

يُحكَى أنَّ:

التلصص بدأ، وحينما اقتربوا ناموا على بطونهم، ورفعوا الرؤوس حتى يشاهدوا ما يحدث هناك قرب الشاطئ في قطعة أرض مستوية، تم لهم رصد الرجلين والنساء الثلاث، ينصبون خيمة سفاري، واحد منهم قال باستنكار: «هذا يعني الإقامة، وعدم الرحيل قريبًا!!».

قال آخر: «وهل يبيت فيها الرجال والنساء معًا؟!».

كان الرد رؤيتهم للغرباء ينصبون خيمة ثانية بجانب الأولى، إذن واحدة للرجلين والثانية للنساء الثلاث، ليس هذا هو المهم، المهم هو وجودهم على الجزيرة، وأن وجودهم يسبب خطرًا، هيّا لتنفيذ خطتنا.

اقترب الرجال الأربعة من الخيمتين، في لحظة توزيع إحدى النساء الثلاث مشروبًا غازيًا تصبّه من زجاجة كبيرة في أكواب ورقية، يمسك كل منهم كوبه بيده. نظروا نحو الأربعة رجال دون تهيّب، بل صاح رجل من الاثنين بدعوتهم لمشاركتهم شرب البارد كما وصف، قال سلامة هرموش إنهم يشكرون لهم الدعوة، ولكن الجزيرة أملاك خاصة، وأنهم دون مواربة غير مرغوب في وجودهم.

الرجل الذي دعاهم للشرب مما يشربون هو الذي تحدث، قال إنهم لم يكونوا يعلمون بأن الجزيرة أرض خاصة، لذا هم آسفون جدًا، ويرجون من أصحاب الجزيرة السماح لهم بالمكوث ليلة واحدة، والنهار التالي سوف يغادرون؛ لأنهم يصورون بعض المقاطع لزوم أحد الإعلانات، وأنه المخرج، وهذا –أشار إلى الرجل بقربه– منتج وممثل، وهؤلاء –أشار إلى النساء الثلاث– ممثلات، أعاد رجاءه في أن يسمح مالك الجزيرة لهم بإتمام مهمتهم، قيل له إن مالك الجزيرة لا يمانع، ولكنّ لكل شيء ثمنًا، سوف يسمح لهم بالمكوث فوق الجزيرة بقية هذا اليوم، وغدًا في الظهر عليهم المغادرة، استطرد: لكن قبل المغادرة يوم الجزيرة بخمسة آلاف من الجنيهات.

ساوم الرجل حتى وصل المبلغ إلى ثلاثة آلاف، فتح حقيبة صغيرة ملتفة حول وسطه، أخرج منها الثلاثة آلاف من الجنيهات، قائلًا إنهم

ثمن الليلة وغدًا إلى الظهيرة، انتظر أن يمد يده هذا المتكلم نيابة عن الآخرين الذين كانوا صامتين، إلا من نظرات فاحصة ضايقته، واعتبرها تصل إلى حدود عدم الذوق، خاصة التي وُجهت إلى النساء الثلاث، المفاجأة الحقيقية التي تركته غير فاهم للتصرف هي أن المتحدث سواء أكان مالك الجزيرة أو من ينوب عنه، استدار ومعه الرجال الثلاثة الآخرون، دون أن يمد يده لأخذ الثلاثة آلاف جنيه. التفت الذي ادّعى أنه المخرج إلى من معه، قائلًا بضيق وشعور بالغرابة: «يبدو الأربعة غير طبيعيين!!».

أرجع الرجل الثاني ما حدث من هؤلاء الرجال إلى وجودهم على جزيرة غير آهلة بالسكان، ووحدتهم وابتعادهم عن الناس والعمران، مما سبب –طبيعيًا- جفوة وخشونة في التعامل. قال الرجل الأول إن ما ذهب إليه لا يفسر طلب النقود ثم عدم أخذها!!

عند العودة إلى أرض الرمال، قال أحدهم إن وجود هؤلاء الغرباء خطر عليهم، خاصة هذه الكاميرا التي يمكن لمن يحملها تصويرهم في غفلة، وهم يستخرجون بسهولة حبات وأحجار الذهب الخالص، والأحجار الكريمة بهذه الوفرة، وافقه اثنان، أما الثالث فتساءل، وهو يدعك جبهته بشدة: وما العمل؟

يقال إن الرجال الأربعة لم يناموا تلك الليلة، كان الاستيلاء على القارب الحديث الذي يملكه هؤلاء الغرباء هو شاغلهم، فهو يعني حمولة أكبر، وقدرة على الإبحار، فوجوده على شاطئ الجزيرة دليل يعني عدم وقوعه في وهم الإبحار دون الوصول، كما حدث مع قاربهم القديم، ليبدأ التنفيذ مع الرجلين أولًا، وتكون خيمة

النساء تاليًا، سرعة الحسم وعدم التهاون لتنجح مهمتهم، في تلك الليلة بحثوا طويلًا عن ذلك المخزن الذي أخبرتهم عنه الزوجة فيما مضى، حتى أنها طلبت منهم رؤيته، إلا أنهم أجّلوا الذهاب إليه، لعدم وجود سبب مهم للذهاب إليه، طالما هي عثرت عليه يمتلئ بالمؤونة، وأنها تقدم أطعمة طيبة، تركوا الذهاب إليه والتفرج على ما فيه من خيرات، لوقت يكون لديهم الفراغ وعدم الانشغال بشيء، تعالت شكاياتهم في الظلام لعدم العثور عليه، سألوا واحدًا منهم: ألم يذهب يومين متتاليين لهذا المخزن لإعداد الثلاث وجبات؟ أجابهم بأنه فعلًا دخل هذا المخزن، وتسكع داخله متفرجًا على ما يوجد فيه، مسجلًا في ذاكرته أماكنها جيدًا، في حالة الرجوع يعثر عليها بسرعة، الآن لا يتذكر أين موقعه بالضبط!!

وقفوا حول من خانته ذاكرته، ويقال إن أحدهم آمن بحيلة المفاجأة كعلاج حالات النسيان، لذا فجأة قام بصفع الشخص النّسّاء على صدغيه بصفعتين قويتين جعلتا عينيه تسرجان، طمعًا في أن يتذكر، إلا أن زميليه الآخريــن ظلّا شطرًا من الليل يحاولان منع المصفوع من الانتقام، وكانا يسألانه بعد كل فترة هياج: أتذكر مكان المخزن؟ فيصرخ محاولًا القفز فوق من قام بصفعه، وإشباعه ضربًا: لا أتذكر إلا الصفع يا طبل أنت وهو.

المفاجأة في الخيمة الأولى جعلت واحدًا منهم يتصور شيئًا أخلاقيًا معيبًا يحدث، صاح باستنكار شديد: «أعلى أرض جزيرتنا تُمارس الموبقات؟!».

كانت الخيمة الأولى الخاصة بالرجلين، المخرج والمنتج الممثل،

فارغة، إذن فهما ينامان في الخيمة الثانية مع النساء الثلاث، سوف يكون العقاب قاسيًا، ولأجل أن تظل أرض الجزيرة طيبة غير مُدَنَّسة، فلا بد من القصاص. كانت حفرة كبيرة وعميقة تحوي المدنسين هي التي تلوح في الذهن، تذهب وتأتي مؤكدة أن عليهم القيام بها، تراجعوا لتنظيم أنفسهم، وكيف لهم إتمام إزالة النجاسة، على ثلاثة منهم تقييد حركة الضحية من أرجل وأذرع وبطن، والرابع عليه بكتم الأنفاس، ثم الانتقال إلى ضحية ثانية يُفعل معها نفس الفعل، وهكذا إلى أن تتم المهمة بتمام الخمسة!!

اعترض واحد منهم، وقال إن عليهم التفكير في طريقة أخرى، فهم في الخيمة ينامون لصق بعضهم البعض، وتنفيذ هذه الخطة يحفها الخطر، فلا يمنع أن تكون رفسة هنا، أو صرخة تسبق التنفيذ فيصحو الآخرون، قاموا بزجر المعترض، ومن ثم دخلوا الخيمة، فقابلهم الفراغ، كانت الخيمة الثانية خالية أيضًا!!

أول ما تبادر إلى أذهانهم هو القارب ذو الدورين، أكيد يحتوي على عنبر للنوم به أسرّة وأغطية، وراحة أكثر.

قادهم عزمهم إلى القارب، هناك اثنان تعثرا في الطريق، فالظلام الذي استتروا به أوقعهم أيضًا في عدم الرؤية الواضحة لموضع أقدامهم، واحد حسس على جبهته عقب تعثره، شعر بلزوجة دمه المسال، قال لهم إنه أصيب بجرح في جبهته بين الحاجبين إلى أعلى قليلًا، قالوا له أن يتحمل، فالوقت غير متسع للتوقف ومحاولة علاجه، ثم إنهم لا يملكون علاجًا من الأصل!!

كان هناك ضوء خافت وحيد في مكان ما من القارب، اقتربوا

كثيرًا، شعروا بهواء البحر، وشموا رائحته، صعد أول واحد محاذرًا، تبعه الآخرون، تجولوا في القارب، هالهم فخامته، وعايروا صاحب القارب الذي بدأت به رحلتهم، اتفقوا على أن يكون هذا القارب هو وسيلتهم في العودة، وتركه في المرسى فور وصولهم، إبعادًا لأي شبهة.

يُحكَى أنّ قرص الشمس فاجأهم، وهو يخرج هناك عند خط الأفق الشرقي، كأنه يصعد من ماء البحر، تأملوه مدة، واحد قال إن الليلة مضت، والعجيب أنه لا يشعر بالنعاس، وأن كل همه الآن العودة إلى أرض الرمال، ومواصلة استخراج خيراتها، قال آخر إنه يشعر بنفس الشعور، وقد أوحشته تلك المشاعر التي تعقب تقليبه في الرمال وعثوره على قطعة الذهب، قال ثالث إن بقعة الرمال وما بها موجودة، وإن عليهم السيطرة على جموح شعورهم الخاص بفرحة اللقية، والتفكير في هؤلاء الغرباء، ثم طرح سؤالًا على الباقين: «أين يمكن أن يكونوا على الجزيرة؟».

تباينت الآراء في البداية، بين أنهم صعدوا إلى مكان تكثر فيه الحشائش والبوص والأشجار لزوم تصويرهم للإعلان، وأنهم سوف يعثرون عليهم عند سيطرة ضوء النهار، وهم يصعدون إلى قاربهم ليذهبوا بعد انتهاء مهمتهم التي جاؤوا من أجلها، يقال إن حالتهم عند القول الأخير تحولت إلى غضب عارم، فهذا التصور يعني فقدانهم للقارب الفخم الحديث، على الأثر اقترح أن تكون خطتهم هي المكوث في القارب ليمتلكوا عنصر المفاجأة.

وافق الجميع على هذا الاقتراح، إلا أنهم ارتعدت أبدانهم فجأة،

فقد رأوا حمدي بهنس وهو متحرر من قيوده حول الشجرة، يجري نحو البحر، ويقفز إليه، ويبدأ السباحة بعزم وقوة في خط مستقيم نحو المرسى، أي نحو مدينتهم، كانوا يركضون بلهفة ولهاث هم أيضًا نحو قطعة أرض الرمال، وهم يئنون كالمرضى!!

[35] يُحكَى أنّ:

يُحكَى أنّ ماذا؟

يُحكَى أنّ الرجلين والنساء الثلاث كانوا في قلب أرض الرمال، يقلّبون فيها ويعثرون على قطع الذهب أو الأحجار الكريمة، أيضًا استولوا على ما تم جمعه في الأيام السابقة، وهم أكثر حرفية، فقد كانوا يمتلكون أكياسًا بلاستيكية كبيرة الحجم سوداء، مما تستخدم لجمع القمامة، يعتقد أنها كانت معهم بقاربهم، وهي الآن تحتوي أكوام الذهب والأحجار الكريمة السابق جمعها، وهم بصدد نقلها إلى قاربهم!!

يُحكَى أنّ التهور أعمى، والجنون أشد عمى، يُحكَى أنّ من بين الثلاث نساء اثنتين بارعتين في فنون القتال، عاين معهما الأربعة رجال الركل بالأقدام والقبضات بسهولة ويسر، ودون مجهود كبير، كانت المرأتان تطيّران الرجل منهم، ثم تدهسان بالأقدام جسده عند البطن أو بين الفخذين خاصة، تجعلانه يعوي ألمًا، كانتا في البداية تتجنبان وتمنعان هجومهما الغشيم، ثم بعد أن شعرتا باستنفاد جهد وطاقة الأربعة رجال، بدأتا في تلقينهم درس الخضوع الكامل لما آلت إليه الأوضاع الجديدة. كان الرجلان عندما يُجندل واحد من الشلة يصيحان: «بالراحة عليه يا كاتيا.. بالراحة عليه يا سيمون».

عمل الرجال الأربعة في مساحة أرض الرمال، بينما جاء الرجلان بكراسي الشواطئ من قاربهم، ثبتوها على حافة الرمال، وجلسا مع النساء الثلاث يشربون ويأكلون أثناء إشرافهم على من سخروهم في التنقيب والجمع.

يقال إن هذه الرمال نداهة، وهي لمن ملك، أي ركب، أي سيطر، أي استحوذ عليها، أي ضَبَطَها، أي لَجَمَها، والمقصود هي الرمال مضاف إليها الرجال الأربعة، أي هيمن عليها، وهيمن عليهم، من أجل خيرها!!

يُحكَى أنّ:

في صباح يوم أمروا الرجال الأربعة بحمل الأكياس الكبيرة العامرة بالذهب والأحجار الكريمة إلى قاربهم، يصطحبهم رجل من الرجلين، ذهبوا بحمولتهم مرة، وعادوا ليحملوا غيرها، تبادلوا حديثًا همسًا: «يبدو أنهم اكتفوا بما جمعوا، وسوف يذهبون».

«ملعونون في كل كتاب، استولوا على ثروتنا، وسخرونا تنقيبًا لحسابهم».

«ليذهبوا، ستعود أرض الرمال لنا».

«ولكنهم سيرحلون مع قاربهم الحديث.. سنخسره».

«معنا قاربنا حتى ولو كان خردة.. لا تيأسوا».

يُحكَى أنّ تفكيرهم تركّز في أمنية مُلحّة، جاءت بعد أن تخلصوا من أمنيتهم الدفينة في التخلص جسديًا ممن استولى وسخرهم، أن يذهبوا عن جزيرتهم، إلا أنهم أصابتهم صدمة عاشوا وقائعها، ويكتوون بنار فعلها كل يوم من أيامهم المقبلة، فقد ذهبت المرأتان اللتان تمتلكان مهارات القتال، وقد عاينوا ذلك منهما، ذهبتا مع رجل هو المنتج الممثل، وبقيت واحدة والرجل الذي قيل إنه المخرج، وكان عليهم مراقبة استمرار العمل في أرض الرمال، لتبدأ القصة من جديد، دون تغيير!!

يقال إن الكفة وازنت الكفة، وأن على الأربعة أن يحملوا بجمعهم مرة واحدة حاسمة على المرأة والرجل لإخراجهما من المشهد، عندها تعود أرض الرمال إلى أصحابها.

يقال إنهم لاحظوا حالة غريبة تنتاب صاحبهم سلامة هرموش؛ إذ وقع في الخلط بينهم في البداية، فكان إذا أراد مخاطبة خريزة دعاه بخليل حواس، وإذا وجّه نداءه إلى مخيمر سماه حواس، ثم نسي الأسماء تمامًا، وصار الناظر إليه يراه مشتت الذهن، نظراته ضائعة، تأملوا حالتهم بدونه، هل يمكن لثلاثة رجال هزيمة رجل واحد وامرأة؟ يمكن جدًا، المهم هو قوة العزم وعدم التخاذل، عندما تعود لهم السيطرة على أرض الرمال وما فيها، سوف يعود سلامة هرموش إلى اتزانه. أكد واحد منهم أن التحول سيكون طبيعيًا؛ لأن هرموش غلبه الشعور بالظلم والغبن، وتبدل حاله من مالك لأرض الرمال مخبأ الكنز إلى مستعبد لا يملك شيئًا، لذا عندما يتحررون سيتحرر من مشاعره السلبية، ويعود كما كانوا يعرفونه.

يُحكَى أنّهم توقفوا في لحظة واحدة عن التنقيب، صاح الرجل أن يواصلوا عملهم، لم ينظروا إليه مباشرة، ظلوا بلا حراك، راقبوه بطرف عيونهم، فلما أنزل قدمه التي كانت فوق القدم الأخرى، واستقام ثم نزل إليهم في أرض الرمال، أصبح صيدًا سهلًا لأربعتهم، اطمأنوا مع ظنهم أن المرأة تبدو غير عارفة بمهارات فنون القتال مثل المرأتين الغائبتين، استطاع الرجل الإفلات بمرونة، ليواجهوا المرأة التي اتضح أنها معلمة كاملة المعنى في فنون القتال، إذ أطاحت بأربعتهم في قفزة واحدة طالت بها قدمها وجه كل منهم، في رفسة كأنها من رجل حصان، ظلت تعيدها كلما التقت بوجه

أحدهم، ربما أصابهم شيء قريب من الإغماء. الحسنة الوحيدة هي رجوع سلامة هرموش إلى عهده الأول دون خلط أو نسيان.

وقع عقاب عليهم، هو أن يظلوا في أرض الرمال ينقبون بلا نوم الليلة، على أن يواصلوا عملهم في النهار التالي بلا راحة، مع عدم صرف وجبتي الغداء والعشاء.

يقال إن مخيمر صاحب القارب ظل ينعى حظه، واستقر على الانسحاب، والعودة ليباشر عمله الأصلي لاعنًا أرض الرمال، وما بها من الجذب والميل والسحر والفتنة، قال واحد منهم: «يا أخي، إن جذبها فيه الخير الأسمى كله».

صرخ مخيمر: «تركته لك ولهم».

يقال إنه خرج من أرض الرمال، ووقف الرجل والمرأة، أشارا إليه بالعودة، قال لهما إنه منسحب، لا يريد شيئًا، وسوف يبتعد عن الجزيرة، ولن يتحدث بأي خبر عنهما، وإن هذا وعد منه، تضاحكا بسخرية، وصرخا في وجهه: «عُد إلى عملك.. لن يخرج أحد منكم بقرار منه».

في هذه اللحظة، عثر واحد ممن ينقّبون على جيب به فرع ممتد من حجر كريم لونه أخضر مزرق، يحتاج استخراجه إلى وقت، أخبرهما، فلما نظرا إليه قال الرجل إنه حجر منخفض السعر، يسمى حجر القمر، وعليه تجاوزه والاستمرار في التنقيب، اختلفت معه المرأة، قالت إنه ثروة مهما كانت ضئيلة إلا أن عليهم عدم التفريط فيها، صاحت: خذ وقتك في استخراجه، وإياك أن تكسره، في المعامل المتخصصة في تشكيل الأحجار الكريمة سيتم تجزئته

بشكل يعود عليهم بالنفع.

يُحكَى أنّ العقاب كان سببًا في طرح وضعهم من جديد، وأسفرت مناقشتهم عن خطة، فعندما جاء الليل ظلوا سهارى، حتى وجدوا الرجل والمرأة نائمين جالسين على مقعديهما، باتفاق صامت بينهم تبادلوا النظر كأنهم يقولون لبعضهم البعض: هذه فرصتنا!!

لا رجعة عن التخلص مــن المرأة والرجل، وماذا عن الآخرين إذا عادوا؟ على الشلة أن تجد حلًا مثل هذا الذي تسعي إلى تنفيذه الآن.

[36] يُحكَى أنّ:

الشلة المكونة من أربعة رجال لم ينجحوا فيما دبروه سرًا، أتعبتهم المرأة؛ إذ إنها استيقظت كذئب ينام مغمضًا عينًا، والأخرى مفتوحة، أفاقت من نومها قبل أن يفعلوا أي شيء، صرخت فيهم: ماذا يفعلون بقربها؟ ولماذا تركوا أرض الرمال؟!

كأنها تمارس تمارين رياضية بعد الاستيقاظ من النوم، لم تنتظر إجابة منهم، يبدو أنها فكرت، وفهمت ما كانوا ينتوونه، أخذت تصيح: هاااا، وهي تقفز في الهواء، بعد خمس دقائق كومتهم بجانب أرض الرمال خائري القوى، ومع ذلك لم ترحمهم، أمرتهم بأن ينتظموا في التنقيب حالًا، التفتت نحو الرجل الذي استيقظ بسبب ضرباتها وصياحها، قالت له وهي تشير إليهم ليزحفوا نحو أرض الرمال: «خونة، كانوا يحاولون الغدر بنا».

يُحكَى أنّ الرجل والمرأتين الذين ذهبوا منذ يومين لم يعودوا، أصبح القارب الحديث غير موجود أيضًا، وظهر بعض الارتباك على الرجل والمرأة، لاحظ الرجال الأربعة كل هذا بصمت إلى أن تكلم واحد منهم، وقال إنهم يملكون وسيلة النقل من الجزيرة إلى العمار، ولكن بشرط أن يكونوا شركاء، وافق الرجل والمرأة، واعتلى سلامة هرموش بهذا الاتفاق سلّم الرئاسة، وبدأ يأمرهما بترك مقاعد الشاطئ، وبأن ينزلا إلى أرض الرمال، ليشاركوا في التنقيب. ثم تعقد الاتفاق؛ حيث قال بتجنب نسبة أربعين في المائة من الحصيلة، ثم تقسم الستين في المائة الباقية على الجميع بالتساوي، فلما تساءلت المرأة عن وضع الأربعين في المائة، قال لها إنها تدخل في حساب

نصيبه وأصحابه الثلاثة، نظير شخرتهم الماضية، حاولت المرأة تذكيره بأنها تجيد الفنون القتالية، وهم عاينوا هذا أكثر من مرة، رفع كتفيه عاليًا، ثم أخفضهما، وقال لها إنه وأصحابه لديهم خطة لكتم أنفاسها للأبد حين تكون نائمة، ولن ينفعها نوم الذئب؛ إذ إنهم تعلموا أن يكونوا أكثر حذرًا، مستغلين عنصر المفاجأة بشكل فعال وحاسم، قال ذلك، وهو يعصر كف يده بكف يده الأخرى، لم تفت المرأة هذه الحركة، وفهمت مغزاها، تحدثت مع الرجل المصاحب لها وتناقشا مدة، ثم نزلا أرض الرمال، وبدأ كل منهما التقليب للعثور على الذهب، كان هذا يعني موافقتهما على شروط الشراكة التي أقرها سلامة هرموش من قبل.

[37] يُحكَى أنّ.. يُحكَى أنّ ماذا؟

يُحكَى أنّ: المرأة اختصت خريزة بالود، كانت بجانبه في أرض الرمال، واحتك كتفها بكتفه أكثر من مرة، إلى أن تعمدت أن يكون الاحتكاك بشكل دائم، ثم النظر في وجهه والابتسام، خريزة همس لها: «هووووه.. أنت جميلة حين تبتسمين».

ذهبا خلف الشجرة التي كان بهنس مقيدًا بالحبال إلى جذعها، كانا يعدان طعام الغداء لهما وللبقية، هي التي طلبت أن يكون معها لمساعدتها، أسفل الشجرة كان اللقاء، حاول خريزة أن يبتعد عن الشجرة بقدر الإمكان، اختفى هو وهي بين حشائش تنمو عالية، تمرغا عدة مرات ملتحمين، في مرة مع الحركة والتملص يكون فوقها، وفى مرة أخرى يجدها فوقه ، أعطته نهدًا وجده صلبًا وله حلمة بارزة، ساعدا بعضهما البعض في خلع ملابسهما تحت سطوة الغُلْمَة ليصلا إلى الارتواء، في أثناء السير نحو اكتماله، كانت قد أنارت له طريقًا في أن تكون أرض الرمال لهما دون الآخرين، مع الانتهاء ونضج الطعام حملاه من فوق الموقد الحجري الذي بناه أحدهم تحت الشجرة بعد هروب بهنس، قالت له قبل أن يصلا إلى أرض الرمال، إن عليهما أن يبدوَا للآخرين عدوين يكره كل منهما رؤية الآخر، وعليه أن يتحمل سخافاتها، ولا يحبط، فهي تحبه، ومن أجل حبها تفعل!!

عندما وصلا تعمدت أمام الجميع أن تسقط طبقًا مملوءًا بخرط البطاطس المطهوة في عصير الطماطم مع الثوم، وهي تسلمه لخريزة متهمة إياه بالرخاوة، وعدم إمساك الطبق جيدًا، حتى سعى

أكثر من واحد لتهدئتها، وإيجاد المبرر لسقوط الطبق بعيدًا عن وصفها لصاحبهم بالرخاوة، وأن السقوط حدث لأنه كان ينظر إلى الناحية الأخرى، حيث تم العثور على عِرق من الذهب يكاد يكون تمثالًا لبقرة هائجة ترفع ذيلها لأعلى، وتشرع قرنيها استعدادًا للنطح. كانت عجيبة بالفعل تصل إلى حد أن تكون تمثالًا مشغولًا بيد أحد النحاتين، ولكن كانت الطبيعة حاضرة، فنحت التمثال لم يكن كامل المقصد، فالطبيعة حرة في صياغاتها، بينما الفنان يعمد إلى خيار مقصود ينطبع هذا في تمثاله، هكذا شرح الرجل المخرج، وقد صور التمثال بكاميرته الديجيتال من عدة زوايا، هذا الفعل لم يرضِ المرأة، وطلبت منه أن يزيل كل ما صوره ويخص التمثال، اندهش الرجل وتساءل: لماذا؟! قالت إن ما صوره يمكن أن يكون دليل إدانة، ولو سئل كافتراض أين صوّره؟ ولمن تعود ملكية هذا التمثال؟ ماذا ستكون إجابته؟

هنا جاء دور خريزة ليعترض متعمدًا، فقال إن قولها يمكن وصفه أيضًا بالفرضية، فمن أين تعرف أن الرجل سوف يُسأل، وهل يعرض صور التمثال عرضًا عامًا محلًا؟! حتى يمكن أن يثير التساؤل الذي افترضته؟

يقال إنها هجمت على خريزة، وقام الرجال الأربعة بالفصل بينهما، بعضهم تساءل باستنكار أثناء هذا: ما هذا العداء بينكما؟ ماذا فعلتما لبعضكما عند الشجرة حتى تعودا بهذا العداء؟!

يقال إن خريزة اتهمها بأنها أكلت هناك من الطعام، وليس من حقها أن تتناول شيئًا مما يوزع عليهم، قالوا له إنه ليس له حق في اتهامها،

فمن حق أي منهم تناول ما يريد من طعام، خاصة وهم لم يدفعوا فيه أي نقود، فهو من خير الجزيرة، طلبوا منه أن يصالحها بأن يقول لها: أنا آسف، وينتهي الجفاء بينهما، رفض خريزة أن يعتذر، وهي قالت إنها لن تقبل منه حتى لو اعتذر، تركهما الجميع على هذه الحال، وقد تأكدوا أن الاثنين تصعب إزالة الجفاء بينهما في الوقت الحالي، وأن الزمن كفيل بمداواة ما في النفوس، كان خريزة يخفي فمه المبتسم!!

يقال إن خطة المرأة للاستحواذ على أرض الرمال، وما تم استخراجه منها تلخّص في أن تلعب على الرجال كلهم نفس الدور الذي لعبته مع خريزة، وساعدها في هذا النظام الذي وضعوه من قبل بمسئوليتها عن الطبخ، مع اصطحاب من تراه مناسبًا من الرجال، أو يتم هذا بالدور لمساعدتها، وحمل ما تطبخه إلى قرب أرض الرمال، حواس فرح جدًا، وقال لها كاذبًا إنه المكتشف الأول لأرض الرمال وما فيها من ثروة، وكان ينوي الانتفاع بها وحده، لولا أنه وثق في صاحبه خريزة، ففضح السر معه، بنية وجود شريك مفيد، ثم اضطراره مشاركة الشلة في السر، وهم من تراهم في أرض الرمال، ما عدا الشخص الذي فكوا قيده وحرروه، كان ضد الانتفاع بخيراتها لنا، لذلك يقترح سرعة الانتهاء من التنقيب، ومغادرة الجزيرة؛ لأن هذا الشخص الذي حرروه سوف يبلغ السلطات، وليس بعيدًا أن نرى جنودًا بأسلحتهم يحيطون بالجميع طالبين منا التسليم برفع الأيدي. كانت تهز رأسها أثناء حديثه، ثم ابتسمت، طلب منها أن يعيدا الكرّة، لأنه ما زال مستثارًا، ولن تكفيه مضاجعة واحدة، قالت له وهي تملس على صدره برقة، إنه طماع، ثم إن عليهما حمل الطعام حالًا

إلى البقية لانتظارهما، ولو غابا وقتًا أكثر فسوف يرسلون واحدًا منهم للنظر فيما حدث لهما.

المرأة مع مخيمر وجدته هائجًا، حتى إنه فاض فيضه قبل أن يمسها، وقرفص مرتكنًا على جذع الشجرة حزينًا صامتًا، ومن أجل ألا تخسره اقتربت منه وقالت له إنه في المرة القادمة سيكون جيدًا، المهم أن عليه ألا يظهر رغبته فيها أمام البقية؛ بل ينبغي عليه أن يكون عدائيًا معها.

سلامة هرموش لم يقتنع بمحاولاتها الدائمة أن تكون بقربه، ولا بملامستها له، وعندما اصطحبها لإعداد الطعام قال لها بصريح العبارة إنها تحاول معه أمرًا آخر غير الحب أو ممارسة علاقة. تذكر زوجته المختلفة في العطاء عن رضا ورغبة، بعكس هذه التي يشعر أن كل ما يبدر منها مفتعل، اقتربت منه أكثر، تمسحت به، صاح: «ابتعدي عني فأنا لا أشعر أنك صادقة.. ماذا تريدين بالضبط؟».

قالت: «أريد أرض الرمال لي ولك، دون الآخرين».

صاح: «أسمع كلامًا عجيبًا.. أرض الرمال لك وللمخرج، أنسيت أنكم سطوتم عليها منا؟ وزدتم بجعلنا مثل النحل الشغالة نجمع لكم خيرها، ولا نعلم متى تكتفون وما هو مصيرنا!!».

يقال إنه تملكته عصبيته المعروفة عنه، فواصل: «أتريدين إزاحة المخرج؟».

لم تُخفِ شيئًا، قالت: «نعم.. كن معي».

يُحكَى أنَّ فكرة نبتت في ذهنه هذه اللحظة، وتراءى له الحل

لمشكلته، ومشكلة أصحابه، سيضربها بالرجل المخرج، ليجعل كل منهما يصفّي الآخر، استدار ليحمل أواني الطعام، وهو يقول لها إنه سيساعدها.

يقال إن خطة هرموش كانت مبنيّة على قاعدة قديمة جدًا، عرفتها البشرية وطبقتها، وهي أن لا ظالم إلا سيُبلَى بظالم؛ حيث وقر في نفسه أن المرأة والرجل المخرج ظالمان سيأكلان بعضهما البعض، وعليه وبقية أصحابه تهيئة الأسباب التي تعجل بهلاكهما.

في هذه الليلة، تحدث مع أصحابه القدامى كما وصفهم، واكتشف كل من حواس وخريزة ومخيمر حقيقة المرأة، ولعبتها التي لعبتها على كل منهم، واضطروا أن يصارحوا بعضهم البعض. طُرحت الخطة، وقد كُلّف كل واحد منهم بقص حكايته مع المرأة على الرجل المخرج، والكيد لها حتى يتخلص منها في لحظة غضب وعمى، حينها سيكون التخلص منه سهلًا على الرجال الأربعة!!

[38] يُحكَى أنّ.. أنّ ماذا؟

يُحكَى أنّ كل ما دُبّر تأجل؛ لأن هناك في صباح اليوم رأوا مركبًا كبيرًا يرسو إلى يابسة الجزيرة الجنوبية، ناموا على البطون، ورفعوا رؤوسهم بحذر، شاهدوا أكثر من خمسة عشر رجلًا يستخدمون سفودًا ضخمًا مشكولًا به ذبيحة كاملة تشوى على نيران متوهجة، وصلت إليهم رائحة الشواء، قال الرجل المخرج: «إنها مركب صيد، وهؤلاء صيادون سيأكلون ثم يذهبون».

قال هرموش له: ألا يكفي ما جمعوا من أحجار ذهب وأحجار كريمة؟ كان يخبره بهذا لمعرفة نواياه، قال أيضًا إنه يعتقد أن الكمية التي جمعوها حتى الآن يمكن أن توفر لكل واحد فيهم حياة كريمة طوال عمره، الوحيد الذي أيده هو مخيمر صاحب القارب، وعلّق قائلًا إن ربع نصيبه يجعله من المياسير، وإنه سيرجع إلى بلده في الصعيد ليقيم فيها، مع أن هرموش قبض على ذراعه بقوة ليصمت، إلا أن الرجل واصل الكشف عن أمنياته، فقال إنه سوف يفتتح عدة مشروعات من أجل أن يعمل بها أقاربه خاصة، فالنعمة التي سيكون عليها لا بد أن تصيبهم منفعتها.

رأى الرجلان وجوهًا واجمة من أفراد الشلة إلى جانب الرجل المخرج، استداروا بوجوههم نحو الغرباء، وهو يتحلقون الشواء، لم ينبس أحد منهم بكلمة مدة، وقد ابتسم الرجل المخرج، وكان يحمل كاميرته الديجيتال، شغّلها ووجّه عدستها نحو كل من هرموش ومخيمر، فلما تساءلا لماذا يصور؟ قال إنه يريد تصوير المشاعر السلبية لهما، فالفروة تحب الفروة، ولن يغادر أحد منهم هذه الجزيرة

إلا بعد أن تقول أرض الرمال بانتهاء وفرتها من الذهب والأحجار الكريمة، سنجعلها أرضًا خرابًا شرط مغادرتنا، خريزة وحواس والمرأة كانوا مع هذا الرأي، يقال إن المسألة حالة تتلبس كيان الشخص، ولا خلاص منها، تفكيره ونظره ومشاعره تلج إلى اللامنتهي، أي التمركز داخل فكرة واحدة هي عدم وجود نهاية!!

يقال إن من أصابه الغيظ هو هرموش؛ خاصة من تدخل مخيمر الساذج الذي لم يفهم تفكيره، فهو كان يريد التأثير على الرجل والمرأة عند ذكر الاكتفاء، فيجعلهما يفكران في المغادرة، ومعرفته أنهما خائنان له وللشلة، فلن تعنيهما اصطحابهم، وسوف يتسللان إلى قارب مخيمر، ويرحلان به دونهم، فتظل أرض الرمال لهم، على الرجل أن يكون مع الشلة ولا يخرج عليها بتفكير سخيف كما أعلن، لم يتحمل إلى أن انفجر فيه صارخًا، وهو يقفز عليه: «يا غبي، أضعت فكرتي بغبائك».

يُحكَى أنّ الخمسة عشر من الصيادين التفتوا، ولمحوا ظهورهم قبل أن يختفوا، وقعت مشادة بين الجميع، فمنهم من أكد أن الغرباء شاهدوهم، ولا بد أنهم أثاروا فضولهم، وأنهم سوف يبحثون عنهم، لذا كان الاقتراح بالابتعاد عن أرض الرمال بقية اليوم، وقضاء الليل في مكان ما، والعودة في صباح اليوم التالي، سيذهب هؤلاء الصيادون إلى عملهم في البحر، طالما أنهم لم يعثروا عليهم، أقروا بأن عدم تمالك سلامة هرموش لمشاعره كانت غلطة كبيرة، فالصرخة والعبارة التي قيلت نبهت الرجال المجتمعين حول الشواء، وعرفوا أن هناك أشخاصًا معهم على الجزيرة، شاهدوهم وهم يتراجعون بسرعة، وتم رصدهم قبل أن يغيبوا عن عيونهم.

يقال إن الرجل المخرج رأى أن يهربوا هناك قرب البركة، يمكنهم الغطس في مياهها، وبين الحشائش النابتة بها، لو تأزمت الأمور ولاحقهم هؤلاء الغرباء.

اختاروا منطقة الحشائش والبوص الواقعة حول جنوب بركة الماء العذب، اطمأنوا أنها تغطيهم عن الأعين، وأن من سيأتي ستجذبه المياه العذبة، وربما ينسى البحث في المنطقة التي ناموا فيها، كانت ليلة مرهقة معذِّبة، حيث هاجمهم البعوض ولم يرحمهم، مص دمهم بشراهة محروم وقع على الزاد، فاغتنم الفرصة!!

يُحكَى أنّ.. يُحكَى أنّهم:

في الصباح كانوا مرهقين، إلا أن أرض الرمال تناديهم، وعليهم تلبية النداء، تمطى منهم من تمطى، وتثاءب البعض، إلا أنهم كانوا يسيرون نحوها، اقتربوا وسمعوا لغطًا، نظروا لبعضهم البعض، وزادت خطواتهم سرعة، التقوا بالخمسة عشر صيادًا وهم في أرض الرمال، وقد جمعوا حبات وأحجار الذهب، كانوا في دهشة ممزوجة بفرحة لم يحاولوا إخفاءها، عندما حاول الرجل المخرج النزول إلى أرض الرمال، صرخوا فيه: «إياك.. هذه أرضنا، ولا نريد غرباء فيها».

[39] يُحكَى أنّ:

الخمسة عشر وقفوا صفًا واحدًا في مواجهة خمسة رجال وامرأة. ظن هرموش ومن معه أن الفنون القتالية التي تجيدها المرأة ستعيد أرض الرمال إليهم، نزلت المرأة بالفعل وجندلت أول رجلين، إلا أن الباقين تجمعوا حولها وشلوا حركتها، وعجنوها عجنًا بقبضاتهم، بقية الشلة رأوا ما حدث، بدؤوا خطة جديدة تعتمد على محاولة الإقناع بالحديث الطيب غير العصبي، قالوا إن الأرض أرضهم بدليل هذه الأكياس البلاستيكية السوداء من أين جاءت في تصوركم؟ إنها ملكنا، سبقناكم والأرض أرضنا، بوضوح سافر أجاب الخمسة عشر بأن وجودهم في أرض الرمال يعني أنها لهم، وليست لأحد غيرهم، ثم طلبوا مغادرتهم، ولكنهم غيروا رأيهم، فصعدوا من أرض الرمال، وأحاطوا بالشلة ومعهم المرأة التي كانت تحاول استرجاع قوتها بعد ما فعلوه بها، سلامة هرموش أدار حوارًا حول أن يكونوا شركاء، وقص عليهم القصة الأولى لاكتشافه أرض الرمال، كان الاكتشاف فوق طاقته في البداية، فأشرك معه زميله وصديق عمره حواس في الأمر، ووضع خطة لحمل ما يمكن حمله في يوم شم النسيم، ثم توسعت المسألة، وتناثر السر، فكنا خمسة رجال وامرأة، صرخوا فيه أن يختصر، قال إن المسألة زادت وسعًا فجاء هذا الرجل، أشار نحو المخرج، وواصل إلى أنه كان بصحبة رجل آخر وامرأتين غادروا وهم يحملون كمية كبيرة من الذهب والأحجار الكريمة، ثم جئتم أنتم، فعلى الأقل نكون شركاء، فتح هرموش فمه مثل أبله، غمض عليه تفسير لماذا ظل الخمسة عشر يضحكون، ويتبادلون صفع الأيدي بالأيدي، كأن هرموش قال نكتة، فجأة صاحوا صيحة واحدة:

«ابتعدوا.. ابتعدوا برضائكم وإلا دفنّاكم هنا مكان أقدامكم».

انسحب أفراد الشلة الأربعة إلى جانب الرجل المخرج والمرأة بعيدًا؛ حيث شاطئ الجزيرة.

[40] يُحكَى أنّ:

رغم شعورهم بالجوع فوق ضياعهم، لم يجرؤ أي واحد منهم على الذهاب إلى حيث ما يشبه المطبخ الذي أقاموه بعد اكتشاف المخزن المحتوي على كل ما يحتاجونه لجعل طعامهم مستساغًا وصالحًا للأكل، ثم هذا الموقد الذي يستخدم أنبوبة بوتاجاز من الخمسين التي عثر عليها، من كان يتكلم منهم أخرسوه، فاللحظة ليست مناسبة للإسهاب، علاوة على هذا هم جميعًا يعرفون كل شيء، المهم الآن سد جوعهم. رأى مخيمر اثنتين من أسماك سرطان البحر تجريان خلف بعضهما البعض، ثم تغيبان عند منحدر نحو البحر، جاءته الفكرة، تألموا وتشكّوا، أخرج مخيمر من جيبه كيسًا من البلاستيك أخفى فيه بعض قطع من الذهب مختلفة الحجم، قال واحد منهم: «لا فائدة في طبع الإنسان.. شريك في كنز ويسرق منه».

«وها هو، لا طال الكنز ولا نصيبه منه!!».

تحمل مخيمر تطاولاتهم، قال إنه سوف يجمع لهم طعامًا، يحتاج إلى نيران لينضج ويمكن أكله، قالوا سنجمع الحطب، ونوقد نارًا، وننتظرك، نرجوك لا تبطئ علينا.

نزل مخيمر من أعلى إلى الشاطئ الواطئ المتصل بالبحر مباشرة، وجد المكان يمتلئ بقبيلة من السراطين، تزحف فوق الحجارة المتناثرة، ولكنها من النوع الشرس الذي يستخدم كلاباته، ويمكن أن يصيب أصابعه بجروح مؤلمة.

بحث على الشاطئ عن شيء يساعده في الإمساك بها، وإبعاد أذاها

عنه، وجد فرعين قديمين من فروع الأشجار، أخذهما وهذبهما بقدر الإمكان، استطاع أن يصيد أول سرطان بوضع عصا فوقه، وشل حركته بتثبيته إلى الأرض، أما العصا الثانية، فاستند عليها، وهو يميل لينزع الكلابتين الشريرتين من جسد السرطان، بعدها يحمله ويضعه في الكيس، بالفعل أخذ يعمل بسرعة لإحساسه بهجوم الجوع، وعلم أن زملاءه لا بد يشعرون بنفس شعوره، امتلا نصف الكيس، وفي إحدى المرات وجد اثنين من السراطين يلتصقان فابتسم، وهو يقول: لا تؤخذاني، الجوع كافر، ونزل بالعصا على ظهريهما، خلع كلابة واحدة من أربعة، ثم صرخ: آاااه!!

سقط على أحجار الشاطئ!!

هرموش صاح على خريزة أن يذهب ليرى هذا المخيمر وما أخّره، كانوا يتحلقون كومة من الحطب جمعوها قبلًا، وأشعلوا فيها النار، خريزة تتبع نفس الطريق الذي مشاه مخيمر، رآه على البعد مستلقيًا على الأحجار، فلما اقترب وجد تجمعًا من السراطين يتسلق جسده، نادى خريزة: «مخيمر ولد دهشوري، هل تنام هنا وتتركنا جوعى؟!».

لم يقم مخيمر، ولم يرد، تأكد خريزة من أنه راح بعيدًا، صرخ ينادي على البقية أن يأتوا إليه بسرعة.

فيما بعد اجتهدوا في حفر لحد في بطن الشاطئ لين التربة، أبعدوا السراطين، وحملوا الجثة، دفنوها، ووقفوا دقيقة أمام القبر، وهم يشاهدون شيئًا عجبًا، السراطين تأتي من كل جهة نحو البقعة التي دفن فيها جسد مخيمر، تتسلق التراب المرتفع الراقدة تحته الجثة، تتكوم في أعداد كثيرة، رأوا أفواهها، وهي تفتح وتغلق

بسرعة، كأنها تتكلم، أكد واحد منهم أنها تسبّح، واحد آخر قال بأنها تستغفر لمخيمر، لم يعلق الباقين بشيء، رجعوا حيث النيران التي أشعلوها ومعهم الكيس الممتلئ نصفه بالسراطين.

رأى حواس على وهج النيران شعر رأس هرموش الهائش، اندهش لأن الشيب ضرب لونه في معظم الفروة، فلما جهر بها نظر إليه هرموش مغيظًا، وسرعان ما قال: وأنت أيضًا شِبتَ يا صاحبي، وأكبر مني.

تأملا رأس خريزة، كان شعره أبيض مثل اللبن الحليب، عندما تم الشواء حضر الرجل المخرج والمرأة ليشاركوا في تناول الطعام، وجدوا المرأة لا تتقن التعامل مع هيكل السرطان المكون من عظام داخلها اللحم، اقترب منها خريزة، وبدأ يعلمها كيف تكسر، وكيف تعبر على اللحم، وأي جزء يؤكل، وأي جزء لا يؤكل، قبل أن يهبط الظلام جلسوا ووجوههم نحو البحر، لا شاي، ولا ماء، بان لهم صعوبة الحياة بعيدًا عن مكانهم الذي استولى عليه الخمسة عشر صيادًا، رأوا المركب أمامهم هناك، ماذا لو استولوا عليها؟ وماذا يعني؟ هل يبحرون بها بعيدًا عن أرض الرمال؟ وماذا يعني هروبهم دون ثروة؟!

يُحكَى أنَّ:

تدمير مركب الصيد هو الرأي الذي أجمع عليه أفراد الشلة بمن فيهم المرأة، فلما يرى الصيادون الخمسة عشر ضياع وسيلة نقلهم، واحتجازهم فوق الجزيرة، وأن جمعهم للذهب والأحجار الكريمة لا معنى له في هذه الحال، يبرزون لهم عارضين عليهم المشاركة التي رفضوها من قبل، خاصة أنهم -أي الشلة- تملك وسيلة نقل، ومع ما

حققوه من جمع للمعدن والحجر الكريم، سوف يوافقون مضطرين، فالحديث لا بد أن يكون في كفة حلم الاستمتاع بالثروة بين الأهل والناس، وطرد فكرة الاستمرار في التنقيب والجمع والتكديس، كن واقعيًا وأنقذ نفسك، هذا الحديث سيرغمهم على الموافقة.

يُحكَى أنَّ:

الأربعة رجال وامرأة نزلوا من مرتفع الجزيرة إلى المركب، صعدوا إليها، وجدوا الشباك معدة على جانبها، اتفقوا على حرقها، والنزول عنها سريعًا والاختفاء بعيدًا، في بحثهم وجدوا خمسة جراكن مملوءة بالسولار، وثلاثة جراكن أصغر في الحجم مملوءة بزيت المحرك، كل واحد منهم حمل من الجراكن واحدًا، وأخذ يصب ما به في أركان وجوانب المركب، بحث سلامة حجاج عن الولاعة في جيوبه فلم يجدها، تذكّر أنها مع حواس، أعطاها له لأنه كان عليه الدور لطبخ طعامهم، قبل طردهم، ثم هو من أشعل الحطب من أجل أكلة السراطين. صرخ في وجهه أن يصحو من غفوته المستمرة، ألا يرى أنهم يحتاجون للولاعة لإنجاز مهمتهم؟

تمت خطتهم، رأوا من مكمنهم ألسنة اللهب، وهي تلتهم جسد المركب، وقد سمعوا أصوات فرقعة عالية مع زيادة حجم النيران المحيطة بجسد المركب، أرجعوا هذا إلى وجود أسطوانات غاز بالمركب، تستخدم في أغراض الطبخ واستعمالات أخرى، هل سمع الخمسة عشر هذه الأصوات؟!

رأوهم يسرعون جريًا نحو المركب المحترق، توقفوا وهم يشاهدون ما تبقى منها يغرق، رأوا أيضًا كمية اليأس والانفعالات

المحبطة تصدر عنهم، تهامسوا: نجحنا في شرنا، هكذا يكون الشر حلًا!!

[41] يُحكَى أنّ:

الأربعة رجال والمرأة تركوا الصيادين، وأسرعوا يذهبون إلى أرض الرمال، عندما وصلوا إليها كاد بعضهم أن يبكي، راحوا إلى حيث الأكياس البلاستيك السوداء المملوءة بخام الذهب والأحجار الكريمة، دسوا أيديهم فيها، حملوا حبيبات وأحجار الذهب، كانوا يملّسون بها وجوههم كأنهم يستحمّون، بعضهم ملأ فمه بها، وصاح وقطع الذهب تتساقط: «آه لو يؤكل الذهب!».

حمل أربعة منهم بعض أكياس ممتلئة بالذهب، والبعض بالأحجار الكريمة، أسرعوا بإخفائها في أماكن يعرفونها، ونزلوا إلى أرض الرمال بعدها، وبدؤوا في التنقيب.

يُحكَى أنّ الخمسة عشر عادوا، وكل مظاهر الإحباط والضيق تصاحبهم، عندما وجدوا من يحتل أرض الرمال لم تغلِ الدماء في عروقهم، بل كانوا مهدلي الأكتاف في ضياع، لم يجدوا حتى ألسنتهم، قالت المرأة صاحبة الفنون القتالية: «الآن يمكنني التعامل معهم».

صعدت إليهم، كانت تقذف الرجل منهم إلى أرض الرمال فيتلقفه أفراد الشلة صفعًا وركلًا، ثم يأمرونه بالتنقيب فورًا، فإذا امتنع زادوا حصة الضرب والصفع والركل حتى يرضخ، في استعادة أرض الرمال استعادة لمكانة أن يكونوا مُلّاكًا لا شغالين لدى مسيطر يفعل معهم ما يفعلونه هم الآن في الخمسة عشر.

كان الليل قريبًا من الانتصاف، أعطوهم راحة، وأمسك خريزة جركن ماء فارغًا وقع على صفحته كطبل يدوي، أمروا رجلًا بالرقص

وشجعوه، بدأ السمر فاترًا، ثم بعد مدة دخل الجميع نوبة الرقص كأنهم في حلقة ذِكر، كانوا في شطح وحركة جسم مجذوب، كلما فكّر صاحبه فيما يملك من ثروة!!

يقال إن الخمسة عشر رجلًا صيادًا عرفوا أن النشوة التي كان عليها أفراد الشلة سوف تسلمهم إلى نوم عميق، لذا فيما بعد منتصف الليل وقبل الفجر انسحبوا من حول أرض الرمال دون أن يشعر بهم أحد، بحثوا طويلًا عن مخبأ قارب مخيمر حتى وجدوه، قفزوا داخله، وقاموا بالتجديف بواسطة أيديهم وأذرعهم مبتعدين عن الجزيرة، ومعهم كيس كبير من البلاستيك الأسود مملوء بقطع الذهب الخام، كانت تكفيهم بعد توزيعها عليهم وتزيد، هناك ناس -قلة- يمكن ألا تغريهم الثروة بمزيد من الثروة، يقال إن أمثال هؤلاء لا بد أن يكونوا موجودين مثلما توجد المفترسات في الغابات للتوازن البيئي، فلا يحدث اضطراب في بنية هذا التوازن بغلبة نوع على نوع آخر.

يقال أيضًا إن هذا الشغف -كما هو حال أفراد الشلة- بالثروة والامتلاك في مقابل الخمسة عشر الذين يمثلون الاكتفاء والزهد، يعطي للحياة دراميتها، أي مآسيها وأفراحها، تركيبها وتسطيحها، بساطتها وتعقيدها، لتكون في البداية والنهاية تستحق أن يطلق عليها وصف حياة، ومع ذلك الاستنتاج لم يفهم أفراد الشلة الحالية تنازل الخمسة عشر أصحاب المركب المحترقة عن أرض الرمال العامرة، وهروبهم وعدم مواجهتهم، اعتبروا ما فعلوه ضد الطبيعة، لماذا لم يستمروا على أرض الجزيرة، والدخول في صراع معهم عبر المكيدة والحيلة والمؤامرة؟! هذا هو الباب الذي كان عليهم فتحه

والولوج منه إلى الاستحواذ والسيادة.. لا معنى لأن تكون مكتفيًا زاهدًا.. لا معنى!!

سألت المرأة عن أين ذهب صاحبهم الرابع، صاح حواس: الآن تتذكرين أنه كان يوجد رجل رابع؟! لقد ذهب، ولن يعود.. رفع يده وإصبعه السبابة إلى أعلى.

[42] يُحكَى أنّ:

كل منهم أراد تفعيل الاتفاق السابق مع المرأة، وهو تصفية الآخرين حتى يصل إلى وجوده مع المرأة، خريزة انتظر التدوير بينهم حتى جاء دوره، ليعاون المرأة في إعداد الطعام، كان يريدها أولًا، امتنعت المرأة عن تمكينه منها، حاول معها بالقوة، نجح في البداية، أسقطها أرضًا وهو فوقها، سرعان ما انقلب الوضع فكان أسفلها، في هذا الوضع استعملت سيقانها لتلتف حول ذراعيه وجسده من أعلى، كالت له الضربات، ركزت حول العينين، والفم، سرعان ما انتفخت عيناه، وتورمت شفتاه، ونزل منهما دم، عند العودة رأى الجميع وجهه، كل منهم قدّر ما حدث في صمت، يقال إنهم في الليل تهامسوا طويلًا، واحد منهم أبدى ضيقه الشديد من عقولهم المُعَطّلَة عن التفكير كل هذه المدة، وعدم استعجال التخلص من المرأة والرجل لتعود أرض الرمال ملكًا خالصًا لثلاثتهم، كانت الخطة بسيطة، في الغد حينما تذهب المرأة مصطحبة واحدًا منهم لإعداد الطعام، على الاثنين المتبقيين مهاجمة الرجل المخرج، والتخلص منه بسرعة ودون ضجيج، عند عودة المرأة ستقابل بحجر ضخم على رأسها، والبقية سهلة، الدقة والحزم هما السبيل لإنجاز المهمة، وداعًا للشخرة، وأهلا بالعودة إلى شلتنا.

يُحكَى أنّ التدبير تم دون مفاجآت تعطل تنفيذه أو تلغيه، لدرجة أنهم لم يصدقوا أن يحدث ما حدث بكل هذه السهولة، وأن ترددهم وخوفهم لم يكن مبررًا، واحتفالًا بملكيتهم لأرض الرمال وحدهم جلسوا على حافتها الصخرية، وزّعوا على أنفسهم لكل واحد ثمرتين من ثمار الجوافة، وبعدها كوبًا من الشاي من بقايا رحلتهم الأولى

بالقارب؛ حيث وجدوا برطمان الشاي بجانبه برطمان السكر، كانت الزوجة جلبتهما من القارب، ووضعتهما حشرًا على فرع الشجرة في مزنق طبيعي بين الجذع والفرع، ضحكوا كثيرًا، وهم ينظرون لأرض الرمال وأرواحهم ترفرف أثناء مسح عيونهم لكامل مساحتها.

يُحكَى أنّهم عندما استلقوا على الأرض لينامُوا بدأ وسواس يزور كل واحد منهم، كان السؤال يظل يأتي فارضًا نفسه، ثم يغيب، ويعود مرة ثانية: «لماذا لا تكون أرض الرمال بما فيها ملكًا لي أنا وحدي؟!».

يُحكَى أنّ.. يُحكَى أنّ ماذا؟!

يُحكَى أنّ السؤال ظل حيًا لم يرحل بالنوم؛ إذ إن كل واحد من الشلة حينما استيقظ نظر إلى البقية واحدًا بعد واحد، وهو يسأل نفسه: بمن أبدأ؟

يُحكَى أنّهم قد وضعوا خطة مسبقة للاستيلاء على مركب صيد تأتي بها الصدفة إلى أحد شواطئ الجزيرة، كما حدث سابقًا، لذلك ظل كل واحد منهم يحاول الرد على استفساره لنفسه، كيف إذا صار بمفرده مالكًا لأرض الرمال، وجاءت المركب بصياديها الذين يمكن أن يكون عددهم الخمسة عشر، يزيد أو يقل، هل يمكنه وهو فرد واحد التغلب عليهم، لتكون المركب له وحده؟ ويمكنه أن يدبر حاله لمغادرة الجزيرة، والعودة بها إليها مرات في أي وقت يناسبه، ليترك الأمر لحين توجد المركب، وأي عدد يكون من الأشخاص عليها، لحظتها سيأتي الحل!!

يُحكَى أنّ مكنونهم بدأ يطبع تصرفاتهم وسلوكهم مع بعضهم

البعض، فأقل سبب للغضب واستعمال العنف لوّن حياتهم، يُحكَى أنّ لحظة الامتلاء والزهد بما حققوا بدأت تظهر أيضًا وتسيطر، فتوقفوا عن التنقيب وجمع كتل الذهب بتنوع أحجامها، من حبة في مثل حجم حبة عدس إلى تكوين بحجم بيضة دجاجة أو أكبر، وكذا الأحجار الكريمة بكافة أشكالها وأنواعها، عمومًا أرض الرمال بوفرتها موجودة، وهي تحت طلبهم في أي وقت.

يُحكَى أنّ رغبتهم في الاستمتاع بما حصلوا عليه هاجمتهم بضراوة، وصارت عبئًا يؤرقهم، ويزيد مساحة البغض المتبادل، حمله كل واحد نحو الآخر، بدأ البغض يضاف إلى الغضب والعنف، وبدأ البحث عن حل للخلاص، هل يتكاتف اثنان منهم على الثالث لإزاحته؟ ثم يتواجه الاثنان المتبقيان ليملك واحد منهما كل شيء؟!

يقال إن من يُكلّف في دوره لإعداد الطعام بدأ يتكاسل، أما النوم فقد جفاهم معظم الليالي، كانت الأشواق إلى الحياة في وجود الناس بضجيجهم، وسخافة مقاصدهم، وفضولهم وحشرتهم فيما يعنيهم، وحشرتهم فيما لا يعنيهم، كان لها في وضعهم الآن مطلب ورغبة كلما تمكنت أمرضت، فالنعمة لا نعمة إلا باعتراف الناس من حولك، وملاحقة عيونهم لمن يرفل مزهوًا بردائها، أي معنى للوجود وأنت تملك وحدك في جزيرة خاوية من الناس؟!

تحولهم من الشغف بالجمع إلى الشغف بالرحيل حتى لو كان مؤقتًا، فاق المائة والثمانين درجة، ولا قدرة صارت لهم على الاستمرار فوق الجزيرة، كل واحد أعد العدة ليكون وحده، ووحده يهرب بما حمل، نحو ذلك المرسى الذي جاء منه يوم شم النسيم،

ويوجد على يابسته الناس، الذين سيغزلون له ثوب السيرة والجاه، والبيت السكن، والعلاقات والمكانة ليكون سيدًا مبهرجًا، وهو يجلس فوق الكنز الذي جمعه أو استولى عليه، ودفع دمًا من أجله، الآن يبدأ كل واحد من الثلاثة تأكيد فرديته، وأن لا وجود للأحلام، الوجود لبقائه الآن فردًا وحيدًا، الآن وفي المستقبل!!

03

الفصل الثالث

[43] الجزيرة غير موجودة!!

وما هي إلا رواية تروى، صُنعت من هراء!!

ماذا تقول؟! والعروة التي بسبب الاستحواذ عليها يرتكب الإنسان الجرائم وصولًا لحد القتل؟!

الجزيرة غير موجودة..

هذه الرواية كذبة كبيرة بكل وقائعها وأحداثها التي تصل في بعض مناطق من متنها إلى حد الخيال المفرط، أنتجته ذائقة نكدة وموجهة، فهل تصل طاقة التملك إلى ما وصلت إليه الأحداث وسلوك أشخاص الرواية؟!

ممكن جدًا، فحب التملك غريزة إنسانية لدى جميع البشر، لكنها تصل أحيانًا إلى درجة مَرَضية، وغير طبيعية، نظرًا لعوامل مختلفة، وتتحول فيها هذه الطاقة أو الغريزة إلى سلوك يتسبب بالكثير من المشاكل كما طالعنا في المتن، إذن هذا الكذب الذي ألف هذا المتن (الرواية)، مقصود في ذاته، ومقصود لذاته أيضًا، هنا سَوْف يَطْرَح المَتْن المُؤَلّف بطريقته التي تميل نحو إبراز أحداث بعينها، ووضعها موضعًا خاصًا، وكأنها قائمة على أن تصب في مجري واحد في نهايته تأتي حكمة مناقضة لكل ما حدث.

هل الرواية ضد أم مع؟ أم هي أرادت فقط السخرية من الأفراد الأساسيين، وهم زملاء وأصدقاء مكتب مصلحة الشهر العقاري المعروفين، والذين يعيشون في مدينة واحدة، وتجمعهم جلسة تكاد تكون يومية على مقهى معروف كل مساء؟!

الشيء الصادق الوحيد فيها هو ورود أسماء (سلامة هرموش وزوجته، وخليل حواس، وسامي خريزة، وحمدي بهنس، وربما اسم مخيمر صاحب القارب) أما اسم بلتاجي فهو مؤلّف مقحم على الأحداث، وربما على الرسالة الكبرى للرواية المؤلفة، فوجوده لم يعنِ إلا وجوده، قصد به إضفاء بعض الطرافة والغرابة، مع أن قصته ربما تشابهت مع آلاف القصص التي كان موضوعها هو نفس ما كان يسعى نحوه بلتاجي، ويريد تنفيذه، إلا أن المتن ربما أراد أن يلحق قصته بالقصة الكبرى، تأكيدًا لرسالته الأساسية، وهي تسلط فكرة واحدة، ولا فكاك منها، سواء أكانت ما سعى وراءه أفراد الشلة، أو بلتاجي بشكل شخصي، في نقطة عدم التحقق التي يمكن استخلاصها في النهاية من منطلق أن هذا كله مؤلف، وليس حقيقيًا، مسّ مع ذلك طبيعة متجذرة داخل النفس البشرية!!

هل قصد من ألّف الرواية كل هذه الدروب؟! أم أنه ألّف أحداثًا لشخصيات يعرفها بقصد السخرية، ووضعها في موقف الحرج والفضيحة؟!

إذن، ورود أسماء حقيقية في متن الرواية التي ظهرت حلقاتها ليلة شم النسيم، ثم طوال يوم شم النسيم، إلى منتصف ليل اليوم، وهي وردت مكتوبة كما في الأوراق السابقة، وذاعت على نفس الترتيب، هذه الأسماء الحقيقية لا يضعها في سلة واحدة، ويراد أن تشكل احتمالات عديدة ومتشابكة؛ بل هو احتمال واحد، هو قصديتها، ربما لإغاظة هذه الشخصيات حينما تستشري الوقائع، وتنتقل من لسان إلى لسان. وإمعانًا في السخرية أن هؤلاء الأفراد سيكون عليهم نفي الأكاذيب المؤلفة كأنها حقيقية، وقد مارسوها بالفعل، وهذا من

أسرار الكذب حين يكون جميلًا مرتبًا، ومنطقي الوقائع في قبول العقل حدوثها، ونتائج هذا التصديق هي التي تدفع الناس نحوهم، والأعجب وضعهم موضع الحسد، والمطالبة بالمشاركة تبعًا للقول: إن الخير يعم!!

عمومًا، ربما تراجع الناس إذا تمكّن منهم العقل، وتوقفوا لحظة للتأمل، ويا لها من لحظة، إذا توقفوا فيها للتأمل، سوف تكون النتيجة مذهلة في وقوفهم أمام حقيقة اندفاعهم في تصديق رواية من السهل لو تحلّى الفرد منهم بالمنطقية في التفكير، لاكتشف زيفها، هنا يمكن اتهامهم بالغيرة من هؤلاء الصّحاب الموظفين بمكتب الشهر العقاري، واختصاصهم بالمروي، فلماذا اختصوا وحدهم بالعثور على الكنز؟!

إذن، هل يخرج الأمر عن الإطار الطبيعي لرواية ما، واعتبارها مجازًا متخيلًا لا واقعًا صرفًا يتصرف الشخص فيه بغيرة؛ لأنه يقارن نفسه وأحقيته في اللقية من هؤلاء التعساء من موظفي مكتب مصلحة الشهر العقاري. سيدخل المشهد مقارنة الشخص لنفسه بالشهرعقاريين، بجانب ما يتولد في النفوس من التسلط والتحكم والهيمنة والرغبة بالسيطرة، وكأن المتن يولّد متونًا أخرى تعيد صياغة الأحداث والوقائع الخاصة بأرض الرمال، وما بها من ثروة، الواقعة ضمن يابسة جزيرة في بحر!!

الجزيرة غير موجودة!!

ماذا تقول؟!

الجزيرة غير موجودة..

هناك من اخترعها وتعمد وجودها، لتكون مسرحًا لتلك الأحداث!!

فالذي يلضم أحداثًا ببعضها مكونًا من خلالها رؤية ما –دعك من أنك تتفق معها أو لا تتفق– على وعي تام بأن روايته سوف تجتاح المدينة، ويعرف أيضًا أن سبل انتشارها مضمونة عبر وسائل الاتصال الحديثة، من نت، ومواقع إليكترونية خاصة، مثل «الفيسبوك» و«تويتر» في خلال أربع وعشرين ساعة، بعد يوم شم النسيم، فالرواية بوقائعها العجيبة اجتاحت المدينة بالفعل، كما يقول المثل الصيني: «الرواية انفجرت كقنبلة، الرواية انتشرت كالوباء».!!

هل يمكن أن نقول: إن البشر مولعون بتأليف حكايات العثور على الجواهر والذهب؟ باختصار إنهم يدخلون بخيالهم مغارة علي بابا، ليغرفوا مما فيها من تلال الثراء، هكذا تكون براعة الإنسان في تزويد شراهته بالوقود، وعليه ألا يتوانى في تغذية شراهته بوقودها.

هكذا جعلت الرواية الكاذبة سلامة هرموش وأصحابه يفتحون الباب على استكمال وهمها، فهل يمكن أن يحولونه إلى حقيقة، ويلتقون على أرض الواقع بجزيرتهم؟!

[44] كان شراء قارب، والتدرب يوميًا ساعة، وأحيانًا يمتد وقت التدريب إلى ساعتين على التجديف، أمر اتفق عليه الأربعة بمن فيهم بهنس، حيث استطاع أمام إغراء امتلاك الثروة أن يضع حلًا لا يتعارض مع مبادئه، فهو أول من نبّه الباقين أنه يمكنهم التنقيب، وبعد الحصول على الثروة، يتم التفاوض مع الحكومة على حصتها، اقتناع الثلاثة الآخرين بوجهة نظره ربما لحاجتهم إلى وجوده نفيًا لدوره في الرواية، كما وصلتهم من ألسنة المحيطين بهم أولًا، ثم من صفحات النت التي نشرت بها وقائعها كاملة، التي قدمته كمعارض بشكل عام، كما أن شيئًا غائرًا في نفس كل من الثلاثة الآخرين، في أن يكون هذا الذي يتصور نفسه من عجينة مختلفة عن عجينتهم، يسقط من عليائه إلى أرضهم، رغبة خبيثة، ونجحوا في تحقيقها.

في تحولهم الجديد لم يهتموا كثيرًا في معرفة مؤلف الرواية الأصلي، فقد تعددت روايات المؤلفين، وانتفت الرغبة في الإمساك بهذا الشخص الذي جعلهم حديث أهل مدينتهم الساحلية، وأصبح تقابلهم وجلوسهم على المقهى مساء كل يوم صعبًا لتجمع الناس حولهم، وتبادل المساخر من نكات، أو مطالبتهم بنفي أو تأكيد الأحداث، كان اللغط يصدعهم.

وزعت المهام، سلامة هو ممسك يد الدفة، ومحمس الفريق، حيث استبدل الوصف الجديد بديلًا عن وصفهم بالشلة، اكتشف أيضًا أن صوته عذب، فاستغله في التشجيع حتى يبث روح الحماسة فيهم، خريزة وحواس يجدفان، بهنس هو الذي يقف في مقدمة القارب ماسحًا وسع البحر للعثور على الجزيرة، أطلقوا عليه فرد الإشارة!!

اجتمعت آراؤهم على أن أي رواية حتى لو كانت كاذبة؛ إلا أن هناك في تفاصيلها يكمن شيء صادق، وأن الجزيرة يمكن أن تكون موجودة، وأن عليهم ممارسة حقهم في أن يصعدوا إلى يابستها، والبحث عن أرض رمال بها، لتكون لهم.

أثار حواس الكثير من الاعتراضات، اشتكى من آلام وأوجاع كتفه الأيمن، وهو بسبب مرض في عضلات الكتف سببته حادثة قديمة، هي سقوطه حينما فلتت مسكته بباب أحد الأتوبيسات المزدحمة، وذكرهم بزيارتهم له في المستشفى أثناء تلقي العلاج، وحسمًا للكثير من الثرثرة والاحتجاجات، اقترح شراء ماتور متحرك كامل بالمروحة، وتركيبه في مؤخرة القارب، بهذا ينشغل فرد واحد بالقيادة، بينما يتفرغ الثلاثة الآخرون بالمراقبة والمسح والبحث عن الجزيرة ببحر المدينة.

[45] هجروا عاداتهم التي عاشوا بها قبل القرار بالبحث عن الجزيرة، وشراء القارب، هرموش كان يتناول طعام الغداء يوميًا الساعة الثالثة والربع تمامًا، ثم في الرابعة ينام ساعة أو ساعة ونصف الساعة، وحينما يصحو من قيلولته يبدأ في ممارسة مهمته كأب، فيطمئن على سير أولاده، من منهم في الكلية، ومن في الثانوية، يجلس مع زوجته يتناقشان في الميزانية، والحقيقة أنه وزوجته كانا بارعين في استكمال الشهر بكل مصاريفه دون أزمات، بل إن الزوجة تنجح في استقطاع جزء تشترك به في جمعية مع سكان العمارة، وكانت دائمًا تحجز دورها في تحصيل نقود الجمعية في آخر المنتفعين بها، ولها وجهة نظر في هذا، فهي تقول: حينما ترى نقودها في حجرها: الآن أنا أملكها.. لست مدينة لأحد.

أما عن الرواية التي وصلت إليها، ومع أنها تعرف أن زوجها سلامة هرموش لم يغادر شقتهم يوم شم النسيم، ونقل جهاز التليفزيون إلى حجرة نومهما ليبتعد عن الصالة، وهي مع أولادها يتناولون الفسيخ بينما هو في ذهابه ومجيئه دائم الإعلان عن قرفه: إف إف، ولا يتناوله، حتى الرنجة لا يأكل إلا بطروخها، أما لحمها فلا يقربه، المهم هي تعرف أن ما وصل إليها تأليف من شخص يريد إغاظة زوجها، وتعريضه للسخرية، وهي تظن أنه من زملائه في مكتب مصلحة الشهر العقاري، يشعر تجاهه بالغيرة، ويريد النيل منه بأي طريقة، يكفي أن كذبته جعلت الناس ينتبهون إلى وجوده إذا حلّ بأي مكان، ولا يسلم من تعليقاتهم التي تكون في بعض الأحيان في منتهى القسوة والإهانة، إلا أنها حدّثته بغضب ووجها كدر: كيف شارك زملاء السوء في قتلها؟! تهاون وغض الطرف، وكان يعرف مصيرها

على يد الملاعين من أصحابه، ذهب بعقلهم كنز الذهب والياقوت والمرجان، والزبرجد والماس، يصيح بها، وهو يرى استغراقها في عدائه: استيقظي يا سوسو، لا يوجد أي تهاون وغدر إلا في رأسك.. إنها رواية مؤلفة يا هانم.

يأخذ هو أيضًا في العجب، فكيف يسمح من افترى بتأليفه، ويجعله يؤلف؟! ما.. ما اسمه؟! آاه الشطح، هذا وصفه.. هو لا يعرفني، أنا ولله الحمد لي ذاكرة سمعية أضعف من ذاكرة السمك، تقول لي اسمك، بعد دقيقة أنساه، موقف ذاكرتي هذا كم أوقعني في الحرج، خاصة عند تقديم شخص مهم، يجب عليّ أن أردد اسمه، سواء مشفوعًا بلفظ باشا أو بيه، أو حتى أستاذ أو دكتور، أضطر للهروب من مناداته، وأنتظر أي واحد يناديه باسمه فألتقطه مرة أخرى، وأردده حتى لا تذهبه ذاكرتي الخؤون إلى حيث لا أعرف.

آااه.. خليل حواس زميل عمل وصديق عمر، سوف يأتي بعد نصف ساعة، ينتظرني لأرتدي ملابس الخروج، ثم ننزل إلى هذا المقهى في الصف المقابل للعمارة التي بها شقتنا هذه، نقضي مدة من بعد صلاة المغرب إلى قبل منتصف الليل بساعة، أو أكثر أو أقل على حسب الظروف والمزاج.. آه.. يأتي سامي خريزة أحيانًا، هو أقرب لحواس مني، وهو زميل في نفس مكتب مصلحة الشهر العقاري، نعم حمدي بهنس أيضًا من موظفي المكتب، شاب تقدم لخطبة شقيقتي، ولكني تحفظت، فعليه ملاحظات خاصة، بصراحة موقف مباحث أمن الدولة منه، فهو مرشح دائم في رابطة العاملين بالمصلحة، ومتهور، وله آراء مثيرة، ودائمًا يرسب، لا أقصد أن الزملاء لا يحبونه، بل العكس هو محبوب، ولكن عندما يطرح أفكاره يخيف منه الزملاء،

حقيقي.

مخيمر ولد دهشوري مَن؟! آاااااه.. أقول إنني لم أخرج أصلًا يوم شم النسيم يا سوسو، وأنت خير شاهد، فكيف يجعلونني أركب قاربًا، وأتعامل مع صاحبه هذا؟! وأيضًا المدعو بلتاجي، لا أعرف أن له ثأرًا، وأخطأ في اعتبار صاحب القارب هو ثأره لأبيه، يا ستر الله، الرواية كلها مملوءة بالقتل، جسدي يرتعد من هذه النقطة، مؤلف فاسد الذوق والحس، لماذا نتدافع لإزاحة زملاء وأصدقاء من أجل ثروة وجدناها صدفة؟! أنا مع موقف بهنس في رفضه الاشتراك في عملية سرقة معدن يجب أن نخبر السلطات عنه، وهي تنقب لصالح المجموع، في هذه النقطة أصاب المؤلف المفتري، لكن بقية روايته فأنا أرفضه جملة وتفصيلًا.

ماذا؟! ماذا تقولين؟! تقولين إن هذا طبع الإنسان منذ خُلق، واكتشف ما تسمى الملكية؟! لا أعرف، والله ممكن!!

ما غاظني جدًا، وعيب ولا يصح أن يشير لعلاقتي بأهل بيتي.. الحميمي يظل حميميًا ويحميه الستر، ما هذا الخبل؟! عيب، سواء كانت رواية منقولة، أو مكتوبة، أنا أعوّل على نسيانها بمرور الأيام، الحمد لله على كل حال، ولكني تأذيت وأهل بيتي وعيالي، حقيقي، سأجعل خليل حواس يبحث عن محامٍ طيب لا يكلفنا مالًا، نوكله ليرفع لنا قضية سب وقذف.. أنتبه؟! أنتبه لأي شيء؟! الشخص الذي نقيم عليه الدعوى؟! هو الشخص مخترع الرواية.. ماذا؟! ما المطلوب؟! آاااه فهمت.. يا خسارة أنا لست ضليعًا في القانون، هل أنت ضليعة سوسو؟!

سبق أن حاولت معرفة هذا الشخص الذي ركّب الأحداث على شخصي وأشخاص زملائي وأصحابي، الخبيث أدخل أشخاصًا آخرين لتبدو روايته مقبولة، وبها أحداث، والناس تريد أحداثًا لتتسع مخيلتهم عندما ينقلونها، سوف يضيفون ويقتصدون على مزاجهم، لا حول ولا قوة إلا بالله، يعني أنني لا أستطيع مقاضاة أحد لأننا لا نعرف مؤلفها الأصلي، وتحديد غرضه الشرير من إذاعتها؟!

من سرّب هذه الرواية غير الأخلاقية للأسف لا بد له غرض.. تقولين تشابه أسماء؟! معقولة؟! هي أسماؤنا بعمدية مع سبق الإصرار، تسألين سؤالًا ماكرًا، لتنقلي الحديث نقلة أخرى، ماذا كنت أفعل لو فرض أنني كنت بالفعل على الجزيرة ضمن من ركبوا القارب؟! انتظري.. دعيني أفكر دقيقة.. تريدين مني صراحة مطلقة؟! طيب.. الصراحة المطلقة هذه ألا تسبب لي المتاعب والمضايقة؟ اجعلي الأمر مستورًا بالله عليك، ليس هروبًا مني، ولكن لماذا هذا التوريط المحرج؟!

طيب.. أولًا كنت سأمنع هذا الذي انسل إلى القارب، وهو ليس من الشلة.. آه هو المدعو بلتاجي، من أن يستخدم المسدس، لأنني سأكتشف وجود المسدس الذي يخفيه تحت ملابسه، ذلك يوم انزلاقه في ماء البحر، وهو يقضي حاجته، سأصادره فورًا باعتباري كبير الشلة.. كيف؟! أنا وحواس وخريزة، وربما بهنس بشكل مفاجئ نقيده، وننزع منه آلة الشر، ونفتح معه نقاشًا.. تقولين تحقيقًا؟! لا.. لسنا جهة تحقيق رسمي، المهم النقاش يوصلنا إلى أنه يسعى خلف صاحب القارب.. نعم مخيمر، ومن ثم نعرف أن صاحب القارب من بلد غير بلد صاحب الثأر، وأن الاسم مجرد تشابه، فاسم الأم المذكور

في شهادة الميلاد الخاصة بمخيمر غير الاسم الذي ذكره بلتاجي، ومن هنا نمنع جريمة قتل، ربما حدثت لو صحت إصابة مخيمر في مقتل.

ماذا؟!

ماذا تقولين؟! أنا الآن أؤلف؟! ما ألّفته جاء نتيجة لسؤال افتراضي منك يا سوسو، لذا ما قلته أو كما تقولين إنني ألّفته هو محض افتراض على سؤالك الافتراضي، أنت ماكرة.. أنت تسألين عن أرض الرمال، وما بها من ذهب وأحجار كريمة، هذا والله صعب، بصراحة كنت سآخذ على قدر حاجتنا دون مغالاة؛ لأن المغالاة تجعل الشيطان يعمل بإخلاص.. ماذا تقولين؟! ما تخرجه الأرض ملك لمن يجده، لماذا تقولين إنه ملك للحكومة؟! قلت الدولة؟! وما الفرق في منطقة مثل منطقتنا؟ هكذا كان بهنس سوف يجيبك.. هاهاهاه.

منطق جيد.. نعم.. الأرض التي بها الكنز ليست من أملاكنا الخاصة، ميراثًا عن الجدود والآباء، منطق فعلًا، ولا يصح أن نستولي على ما بها، طالما أنها ملك عام، أي ملك للدولة، وهي حرة فيها تستخرج أو لا تستخرج.. والله أنت تقومين بوضعي أمام مشكلة فعلا، ولكن بصراحة كنت كما قلت من قبل سوف آخذ من الكنز ما يغنيني وينقلني نقلة مادية كبيرة، طالما أن الرواية قالت بأن أرض الرمال لا ينفد منها الذهب، ومن ألّف جعلها أمحولة، كلما أخذت منها زادت ولا تقل، وتفتح أبواب الطمع والشهوة إلى المزيد، بصراحة كان الجميع أمام غواية.

حاول المؤلف أن يناقش طبيعة متأصلة في الإنسان منذ وضع

قدميه على الأرض، وكما أوضحت أنت من دقيقة، مضت هذه الفكرة، صراحة سمعتها من بهنس عندما عدنا بعد يوم من شم النسيم إلى العمل بالمكتب، وقد مرّت ثلاثة أيام على العودة إلى المصلحة، كانت الرواية انتشرت وأصبحت ملكًا لكل شخص، يقصها لآخر بلغة خاصة به، وتصرف أيضًا ملون بموقفه منا، أو بموقفه من الثروة خاصة، ووجهة نظره في الاستحواذ عليها.

نعم، المكتب كله استقبلنا استقبال الفاتحين، بعضهم تصور أننا سوف نمطرهم بالعطايا، فهم زملاء، ونحن أثرياء، والجودة في الموجودة، وابسط يدك، لكن سؤالهم بعد مضي ربع اليوم، كانوا يأتون إلى مكتبي يتأملونني نحو دقيقة، ثم يخرجون دون كلام، كل هذا وأنا مثل الأطرش في الزفة، لم أعلم بالرواية المنتشرة بين زملاء المصلحة، إلى أن ظهر أحد الزملاء، بصراحة لا يستلطفني، وأنا أبادله نفس الشعور، لكن افرحي؛ لأن الكلام يخصك يا سوسو.

دخل هذا الزميل مكتبي فجأة، ونظر نحوي وهو يتنفس بسرعة، ثم صرخ: «يا كافر، من أجل حطام الدنيا تقتل أم أولادك وشريكة حياتك؟! أعماك الطمع يا أعمى».

ثم بدأ في النصيحة: «يا أخي هرموش، ما زُخرفُ الدُنيا وزبرجُ أهلها... إلا غرورٌ كُلُّه وحُطامٌ».

لم أهتم إلا بعبارته الأولي التي تخص قتلي لك، ما هذا الخبال! كنت تركتك في البيت منذ عشر دقائق بعد أن صممت أن أشرب كوب اللبن، وأنا أتحجج بتأخري عن المكتب، وقفتِ مستندة على باب الخروج من الداخل، حتى شربت ثلاثة أرباع الكوب، وقلت لك:

أرجوك يا سوسو سوف أتأخر، ولدينا اليوم احتمال كبير في تفتيش من الوزارة، يعني تركتك سليمة معافاة، فما الذي يقوله هذا الأخ؟!

في هذه اللحظة دخل علينا خليل حواس مصطحبًا سامي خريزة، فاصطدم بهما، هذا الذي اتهمني بقتلك، هاج فورًا ونفخ صدره في مواجهتهما، موجهًا عتابًا قاسيًا لهما لأنهما قرناء سوء، أثرا على عقل وتفكير سلامة هرموش، حتى وافق بصمت على قتل زوجته، بكى الرجل وبلّل لحيته فعلًا والله تأثرًا، وصائحًا فيهما: منكما لله، إن عقابكما عند الله عظيم، وسوف تتلقيان عقاب الدنيا حالًا، كان يدور في مكانه، وهو يصرخ: القصاص القصاص، أبلغت الشرطة، أعلمتها بحضوركم المكتب بربطة المعلم، ارتفع صوته، وهو يقول: أين الضال الآخر حمدي بهنس؟ يا مختار.. يا مختار، كان ينادي على عامل المكتب، فظهر الرجل في الطرقة خارج مكتبي، صاح فيه أن يبحث عن بهنس ويحضره هنا على عجل، الرجل مختار طبعه الظرف وحب النكات، رد عليه قائلًا: كاوتش العجلة دخل فيه مسمار يا أستاذ حجي، سيأتي إلى حضرتك على رجليه.

ضحكنا وهو استغرب، بعدها هز دماغه، وقال: طبعًا شلة الأنس مجتمعة في نار جهنم إن شاء الله، وخرج من المكتب، عمومًا الشرطة لم تأتِ، لا أعرف، هل هي تعرف أصل الموضوع؟ أم أن الرجل لم يبلغ، وأراد تخويفنا حتى نعلن على يديه التوبة، أم أن شيئًا آخر لا نعلمه!!

[46] خليل حواس هو من كان خلف قرار شراء القارب بإلحاح غريب، وطرح مقولة إن كانت الرواية كاذبة، فالبحث في تفاصيلها بتمعن وذهن منفتح يمكنك عندئذ من العثور على نقطة صادقة في مساحة الكذب الكبيرة، فلما سُئل عما يقصده أكد أن الجزيرة موجودة، ولولا وجودها ما كانت توجد رواية لدى هذا المؤلف الغامض، راجعوه أكثر من مرة، ولكنه صمم، فلما زادوا في استفسارهم قال إن زوجته مؤمنة تمام الإيمان بوجود الجزيرة، وقد تجاوزت سلسلة ما أحدثته أرض الرمال من إيقاظ لنوازع الجشع والطمع، ووصول الأمر إلى حد التخلص من بعضنا البعض في سبيل الاستحواذ على الثروة دون شريك. في البداية عندما وصلت إليها الرواية عشاء يوم شم النسيم من شقيقتها التي تتعامل مع شبكة النت ومواقع «الفيسبوك»، و«الواتساب»، و«الإنستجرام»، و«تيك توك»، ولو ظهرت مواقع أخرى فسوف تشترك بها وتتعامل معها. أولًا باركت لشقيقتها التي هي زوجتي على الثروة، ولكنها ذيّلت مباركتها بنبوءة تعليقي في حبل المشنقة لثبوت ضلوعي في قتل زملائي الذين كانوا معي في الحصول على الكنز، ولكن ما الذي نفعله في طبع البني آدم الذي لا يملأ عينه سوى التراب، وأن عليها الأخذ بنصيحة شقيقتها، وهي جمع الثروة حالًا دون تلكؤ، وحملها إليها في بيتها، والابتعاد عن خليل فورًا حتى لا تضيع معه حين يتم القبض عليه، وأكدت عليها أن تسرع وإلا ضاعت عليها حياة النعيم!!

زوجة حواس بحثت في كافة أركان الشقة وقلّبت، كان ينقصها خلع بلاط الغرف، لظنها أن زوجها أخفى الثروة تحتها، مع أنها خرجت معه يوم شم النسيم، زارا أهلها، وقضيا اليوم كله

معهم، وناما الليلة عندهم، وفي الصباح أعدت الزوجة لحواس السندوتشات قبل خروجه إلى مكتب المصلحة، لم تنتبه إلى كل هذا الذي يثبت أن ما قَصّته شقيقتها عليها من باب الوهم، الإنسان يسمع ما يريد، ويحتفظ في ذاكرته بما يحب.

شراء القارب الفايبرجلاس كان هو من بحث عن الأماكن المتوفر فيها، ذهب إليها، وعاين الأشكال والأحجام، إلى أن استقر على نموذج فالوكة طراز نزهة، وأبدى رغبة وهمة في دفع أكبر نصيب من ثمنه حتى يوافق الثلاثة الآخرون على الشراء، وقد اضطر أن يرجع إلى الشركة عندما استقر الرأي على استخدام ماتور بمروحة ويد دفة معًا، وسأل هل يصلح هذا التحديث مع النموذج الذي تم شراؤه؟ فقالوا له أن لا بأس، ولكن لا بد من فني يستطيع تركيب هذه المستحدثات وتدريبه على استعمالها، وله بالطبع أجر خلاف الثمن المعلن للمروحة والماتور ويد الدفة، وافق دون الرجوع إلى بقية الفريق، ولكنهم حينما وجدوا المعدة جاهزة، وأنه استخدمها بسهولة، مع تنازله عن وضعه لهرموش، بعد أن وجه إليه بعض التعليمات التي سبق أن سمعها من فني الشركة، وكلها أمور بسيطة لا تعقيد فيها، ولا غامض.

[47] لم يهتموا عقب ملاحظة قالها أحدهم، تعمدوا إهمالها، فبحثهم عن الجزيرة قد بدأ، ولا ينبغي لأي شيء خارج هذا البحث أن يعطلهم عن إجرائه يوميًا، إلى أن طرح أحدهم فكرة تقديمهم لطلبات إجازة سنوية، وهذا من حقهم القانوني، ليقدم كل منهم طلبًا بإجازة لمدة أسبوع، حسمًا من إجازته السنوية، تساءل واحد منهم: هل تقدمنا بطلب إجازة نحن الأربعة في وقت واحد؟ ألا يثير الانتباه؟!

أكدوا أن هذا لا يعنيهم في شيء، وأن ما سوف يُقدمون عليه لا يستحق منهم الالتفات إلى سفاسف الأمور، هناك ما هو أجدى بالاهتمام.

تقدم القارب إلى عمق البحر بمسافة قدّرها هرموش وتوقف عندها، ثم سيّر القارب بواسطة الدفة إلى اليسار، كان حواس وخريزة وبهنس في المقدمة، واحد ينظر نحو اليمين، وواحد يتطلع في فسح البحر نحو اليسار، أما الثالث فهو ثابت النظر نحو الأمام، كانوا يمسحون البحر بحثًا عن جزيرة!!

تعلموا من الرواية الكذوب شيئًا مهمًا، سدوا به فتحة خؤونًا تأتي عبرها مشكلة تعادل حياتهم بلا مبالغة. بسبب هذه النقطة المهمة كانوا يكدسون الأطعمة بقاربهم، علب البلوبيف، وعلب التونة، وعدة عبوات من خضار مشكل جاء بها خريزة، مع أن حواس وهرموش سألا عنها في المحلات والسوبرماركتات التي يعرفانها فلم يجداها، أضافوا أيضًا عدة علب من بسكويت خاص معمول بالكمون، وهو بديل للخبز إذا شح أو انعدم، أشار به بهنس فهو يعرفه منذ

كان مجندًا بالجيش، حمل هرموش يومًا ثلاثة كيزان من أذرع البسطرمة، وأضافها إلى الخزين قائلًا: «اللحم المملح المتبل بروتين مجفف.. لا حاجة لنا لصيد السمك وشيه، وضياع وقتنا».

كان بالقارب موقد بوتاجاز بعين واحدة، يستخدم مع براد الشاي، لم ينسوا وجود خزان كبير وسط القارب مملوء بالماء العذب، إلى جانب ثلاثة جراكن مملوءة أيضًا، أما جراكن الوقود من سولار وزيت للماتور فهي مركونة قرب خلفية القارب، وتغطى بمشمع.

استبدلوا بالفواكه الطازجة فواكه مجففة خوف فساد الأولى إذا استمروا يبحرون عدة أيام وهي معهم على القارب، خزّنوا الزبيب والتمر، والمشمش، والتين، ضحكوا كثيرًا حينما ذكرت الرواية المؤلفة في معرض حديثهم، تساءلوا ما موقف مؤلفها منهم بعد بداية انحسار هوجتها، ونسيان الناس لها رويدًا رويدًا، وقف بعضهم عند مسألة النسيان بعامل الزمن ليس نفيًا كاملًا، فقال إن الذاكرة الجمعية يمكنها بالفعل وبمرور الزمن أن تنسى عدة تفاصيل، ولكن هذه الذاكرة يترسب في قاعها شيء من الرواية لا يستطيع الزمن محوه بشكل نهائي، لكن هذا لا يهم الآن، المهم هو هل يراهم هذا المؤلف، ويتعامل معهم يوميًا؟ ما الذي فكر فيه عندما رآهم يشترون القارب؟ هل رآهم فعلًا؟ هل هو مهتم بتتبع خطواتهم إلى هذه الدرجة؟!

هل يمكن أن يفكر في كتابة رواية جديدة عنهم، وهم في حالتهم الجديدة الآن؟!

قال هرموش: ومن أين له أن يرانا ونحن في عرض البحر؟ أجابه

حواس بأنه قادر على التأليف، يمكنه أن يضعنا في أحداث هذا الخبيث، فقد جربناه يا أصحاب، جربناه.

في أحد الأيام حط طائر على سطح القارب، بعد ثوانٍ لحق به طائر آخر، كان واضحًا أنهما ذكر وأنثى، لم يهتم الطائران بوجودهم، حتى بعد أن حاول بهنس هَشَّهُما بذراعيه، وإخراج عدة أصوات من فمه، اعتلى الذكر ظهر الأنثى، وتسافد معها، وبعد أن انتهيا رفرفا بأجنحتهما، وصدر زعيق عن الذكر بعدها ركب الهواء، وتبعته الأنثى، علق خريزة قائلًا: ما هذا؟! حينما أرادا فعلاها دون مراعاة لوجودنا!!

اكتمل قوله مع وجود زوجين من الطيور مثل الأولين، تسافدا عند مقدم القارب، وحلّقا بعدها، صاحوا بدهشة: ماذا في هذه المنطقة من القارب تستدعي طيور البحر لفعلها عندها؟!

بعد انتهاء جملتهم المتسائلة، حط خمسة أزواج تسافدوا عند مقدم القارب، ثم طاروا بعيدًا. قبل أن يعلقوا بشيء جديد ازدحم سطح القارب بطيور متسافدة، حتى أنهم أعلنوا غرابة ما يحدث، بل وصل الأمر بخريزة إلى أن يسِمَ القارب بالنجاسة، فما كان من حواس إلا أن صاح بأن هذا التفكير ما هو إلا ضيق أفق، صاحبه لا يراعي النظر للظواهر في تشابكها، وأن الفعل طبيعي؛ لأن هذه الطيور في موسم التزاوج، كما أنه يرى ما فعلته فألًا حسنًا، وقبل أن يعلق أحد بشيء أشار بيده نحو بقعة إلى يمينهم، فرأوا جموعًا غفيرة من هذه الطيور تعطي إيحاء بأنها تقف مغمورة مخالبها وجزء صغير من سيقانها في ماء، صاح حواس: هذه جزيرة هناك تحت الماء مباشرة، سوف تظهر في النهار عند الجزر، ثم طلب من هرموش

الاقتراب منها بهدوء.

[48] حرصوا على أن يدقوا في اليابس تحت الماء وتدًا معدنيًا كان موجودًا ضمن مشتملات القارب عند الشراء، ربطوا به القارب ربطة متينة، كانت أمشاط أقدامهم هي التي أحاطت بها المياه، فلما ساروا إلى منتصفها وجدوا بقعة كبيرة شبه دائرية تسطع بضوء أصفر لامع، ظنوه في البداية تلاعب الضوء مع الماء، إلا أنهم سرعان ما نفوا هذا الظن، فالبقعة التي تشبه الدائرة هي وحدها وسط البحر من حولهم كانت ظاهرة اللمعان المصفر، ولونها هذا يخصها وحدها، جرى خريزة وبهنس نحوها، والماء يتفرق بصوت في كل ناحية من أثر اصطدام أرجلهما به. صاح الآخران: كونا حذرين حتى لا تسقطا في غرق خائن فجأة!!

وقف الأربعة فاغري الأفواه مدة أمام المفاجأة، كانت اللمعة الصفراء هي قطع الذهب في المنطقة شبه الدائرية على سطح تلك الأرض المغمورة بالمياه السطحية!!

كانت شبه الدائرة وافرة في عطائها كما عاينوا مباشرة، قطع الذهب كبيرة، والمفارقة أنها ليست مخلوطة أو مختفية تحت رمال، غسل البحر المعدن، ضع يدك وخذ مباشرة، شعور ينتاب من ينظر أن قطع الذهب لا تنفد، كلما أخذت زادت، عكس قانون الحياة والمادة الذي يعيشون تحت سطوته، ويتوافقون معه، كان عليهم أن يغمضوا عيونهم لحظة، ويهزوا رؤوسهم بعنف حتى يطردوا هذا الأخذ، ولا شيء في رؤوسهم إلا هي.. هي هي، ولا شيء إلا هي!!

هل يبدأ العمل؟!

اقترح حواس ألا ينتظروا الليل، فسوف يحدث فيه مد، وترتفع

هذه المياه، صاح: ابدؤوا الآن.

كانت الأكياس قماشية اشتروها، بعد أن تأملوا هذه التفصيلة الصغيرة في الرواية الأصلية، ووجدوا أن تكون الأكياس من هذا النوع القماشي بديلًا عن الأكياس البلاستيكية، عندما يمتلئ كيس يُنقل فورًا إلى القارب، وتُضم إليه الأكياس الممتلئة الأخرى بترتيب ونظام.

عندما جاء الليل ارتفعت فعلًا المياه، وشعروا بالبرد، قرروا أن يرتاحوا فوق قاربهم، صعدوا، وأخرج هرموش من خزانة القارب أربع بطاطين كانت كل واحدة في كيسها البلاستيك الشفاف، وزّع على كل زميل واحدة، قام بلف جسده ببطانيته واستند إلى جانب القارب، وأغمض عينيه، ففعل الآخرون مثلما فعل، بعد فترة خرج بهنس من بطانيته صائحًا أنهم نسوا تناول وجبة العشاء، تحلقوا حول طبق صب فيه هرموش محتوى علبة بلوبيف، وبحث عن كيس به خبز اشتراه في صباح هذا اليوم، وزّع على كل فرد من الفريق رغيفًا واحدًا، فلما أعلن خريزة عدم رضاه، سمع محاضرة عن قيمة أن يكون العشاء خفيفًا حتى لا يتعب معدته، ثم قال إن هناك ثمرتين من التين المجفف، وحفنة زبيب، ثم بعد هذا كله سيكون كوب الشاي في يد كل واحد، تساءل بلهجة توحي بالفخر: أليس ما أعددناه ونفعله الآن أفضل مما فعلناه في رواية هذا الخبيث؟ كان يريد النيل منا، إلا أننا هزمناه بحسن الترتيب والتحضير والإعداد، وها نحن نحصل على بقعتنا الذهبية، أرض رماله كانت وهمًا!!

علّق حواس قائلًا إن ما أشار إليه هرموش صحيح، ولكنّا لسنا

في مواجهة مع أحد لإثبات جدارتنا، علينا أن يكون ما نفعله سرًا، لا يطّلع عليه أي شخص خارج فريقنا، هزوا رؤوسهم موافقين، استعدوا للنوم مرة أخرى، لم تقبل أجسامهم الراحة، هرموش أبعد لف البطانية عنه، ونزل إلى اليابسة، كانت المياه تصل إلى منتصف ساقه قبل الركبتين، وكان لمعان الذهب يأتيه ضوء النجوم فيرسل لمعانه هو أيضًا، مال هرموش وقبض على عدة أحجار من الذهب مرة واحدة، حاذر أن يميل بجذعه أكثر حتى لا تغمر وجهه المياه، بعد خمس دقائق وجد أفراد الفريق حوله يفعلون ما يفعل، خريزة أحضر معه مصباح إضاءة ذاتيًا، صرخ فيه هرموش أن يطفئه فورًا، فامتثل خريزة فورًا بسبب الصرخة المفاجئة، بعدها استقر حاله حينما شرح هرموش أن ضوء المصباح يمكن أن يجذب الغرباء إلى مكانهم، ويعيد فريقهم ما أخبرت به الرواية التي انتشرت وجعلتهم أفرادًا يعملون سخرة في أحداثها، لصالح دخلاء دخلوا على الأحداث صدفة، قال إن ضوء الذهب المنعكس في شبه الدائرة كافٍ للرؤية.

[49] لا أحد منهم يعلم كم مر من وقت، هي الشمس تغرب ثم تشرق، وهم في عملهم كأنهم موجّهون، ولا يملكون سوى الاستمرار، الشعور الوحيد الذي لازمهم، ويخرجهم عن حالة الاستغراق المكين في جمع أحجار الذهب، هو الشعور بالجوع المستمر، وهو شعور داهم مريع لا مفر من الخضوع لمتطلباته، والذهاب للقارب حيث أنواع الطعام، تمد يدك تفتح علبة تأكل ما بها، والعودة سريعًا، كانت نوبات الجوع يقابلها ضيق لتعطيلها الجمع. لحظة الخضوع لأمرها، والاستدارة للذهاب نحو القارب كانت هي الفرصة لتأمل العالم من حولهم، مياه واسعة، هناك بعيدًا تظهر المراكب، بعضها للصيد، وبعضها لحمل البضائع والمسافرين، هي هناك ومكانهم ليس على طريقها، كأنهم وحيدون متوحدون أوحدون، متفردون بأنفسهم، منقطعون لفعل دائم أبدي، واحِدون وأُخدان ووُخدَان، ولكل واحد منهم نفس، والنفس أمارة بالسوء وغير السوء. لم يقترح واحد منهم على الباقين أنه حان وقت الاكتفاء، وأن عليهم العودة بما حملوا من ثروة!!

هل استقرت في ذاكرة كل منهم النتيجة التي أعقبت هذا الطلب، من تلك الرواية الوهمية التي جعلتهم داخل متنها، تدار بهم الأحداث والوقائع؟ هل يتذكرون ويبتعدون بأنفسهم عن المصير الذي أنبأت به الرواية لكل من نادى بالخروج من حالة الاستلاب؟!

مع أنها رواية وهمية متصورة وغير واقعية، إلا أن كل واحد فيهم حرص على ذاته بالاستمرار في قنص قطع الذهب، هل هناك شيء أجمل من استمرار اقتناص قطع الذهب من تلك البقعة التي تغطيها المياه بعدة سنتيمترات فقط، إنها توهم المارين عليها من الذين يركبون المراكب أو السفن، أو حتى القوارب، بأنها مساحة ماء من

بحر ممتد، هم في قلب خدعة، هل الجملة: «هم في قلب خدعة» صحيحة الصياغة والواقع؟ الجملة صحيحة الصياغة والواقع، لكن المقصود منها هو الأهم، كانت الرواية التي سمعوا بها، ووصفوها بالوهمية، وأن كل وقائعها كاذبة، ألّفها صاحبها للنيل منهم، وجعلهم مثار سخرية المدينة التي يعيشون فيها، هي الآن وقبل الآن التي تحدد مصيرهم!!

كم يومًا مر عليهم؟

لم ينتبه أحد منهم لحساب الأيام، ولا نظر في ساعة يده، أو استخدم التليفون المحمول. عمومًا الساعات خُلعت ووُضعت في الحقيبة التي تخص كلًا منهم، فالأيدي دائمًا تلتقط وهي مغموسة في الماء، ربما في بعض الأحيان إلى حد الرسغ، لا حاجة للساعات إذن، ولا إلى المحمول، الشمس تشرق تعني الاستيقاظ وتناول طعام الفطور، الشمس تغرب ربما يكون نوم أو لا يكون، هو الاستمرار، أي الدوام والمضي على طريقة واحدة، في يوم شاهدوا إحدى مراكب الصيد مرت عليهم، كان مَن على سطحها يلوحون بأيديهم نحوهم، فجأة انتبه هرموش، شخط فيهم أن يردوا التحية، ظلوا يلاحقون مركب الصيد بعيونهم حتى اختفت، قال حواس: يا ترى ما الذي تصوروه عنا؟

لم يجبه أحد، فأعاد سؤاله مما جعل هرموش يصاب بضيق فجائي، فصرخ نحوه قائلًا إن تصورهم أخذوه معهم واختفى باختفائهم، ثم دب سبابته في صدر صاحبه منبهًا أن عليه ألا يكون كثير الكلام متكلفًا، لم يصمت حواس كما كان متوقعًا، ذكّرهم

بالرواية الوهمية التي كانت سببًا في وجودهم هنا في تلك البقعة من البحر، وأنه كلما اقتربت مركب الصيد منهم تذكر ما حدث من سُخرة، تصور أنهم سيقعون في أيدي مجموعة الصيادين، أقسم أنه كان يفكر في القفز على القارب، وتنشيط الماتور، والمغادرة بسرعة قبل أن تتدهور الحالة، ونقع في أيديهم، قالوا له: «كنت تفكر في الهروب دون أن تأخذنا معك؟!».

بصراحة مطلقة قال خليل حواس: «لحظتها لم أفكر إلا في نفسي.. لا أكذب عليكم».

[50] هل جملة خليل حواس: «لحظتها لم أفكر إلا في نفسي» هي التي جعلت كل واحد منهم يلجأ إلى ذاته؟ ويفكر جديًا في مضمونها، ويبدأ في النظر للآخرين ضائقًا لا يحتمل منهم صوتًا ولا تصرفًا؟!

كانت الكلمات النهائية في الرواية التي لم تحدث وقائعها، وكانت كلها متخيلة، وساخرة منهم كشلة في مكتب المصلحة، وشلة لها مكان في مقهى تحتله، تلعب الدومينو والطاولة ويثرثر أفرادها، أحيانًا يصخبون، وأحيانًا يصمتون، ما الذي أغاظ فيهم هذا الذي ألّف الرواية، وقام بنشرها عبر وسائل الاتصال الحديثة؟!

ما كل هذا الذي يمكن أن تفعله جملة قيلت دون تفكير في مدى وجعها أو تأثيرها؟ هل هي المفتاح؟ أم هي طبيعة متأصلة تظل قابعة إلى أن يكشف عنها قول، أو حتى إيماءة؟ كان كل واحد من الثلاثة الآخرين يقول لنفسه، وهو ينظر لأكياس الذهب المكومة بالقارب: «يقول إنه لم يفكر إلا في نفسه، عليّ أن أفكر في نفسي أنا أيضًا».

خليل حواس صاحب المقولة التي قالها دون تفكير أو تحرز، مع أنه كان صادقًا، ولكنه لم يتوقف عندها إلا لحظة مشاهدته لوجوه رفاقه عقب العبارة، لاحظ صمت الآخرين، وذهاب كل منهم داخل نفسه، قالها أيضًا: «عليّ أن أفكر في نفسي، ما لي أنا وللآخرين؟!».

كانت زوجة سلامة هرموش تصطحب ابنتها معها عصر كل يوم عند المرسى، تظل تسأل وتستجوب أصحاب القوارب، عن رؤيتهم لزوجها، تسهب في وصف جرم زوجها، وتسريحة شعره، وهذا

الشيب الذي خص فوديه فقط دون بقية فروة رأسه، توسعت فيما بعد في وصف أصحابه الثلاثة، عندما عثرت على صورة تجمع الأربعة معًا في إحدى حفلات استقبال مدير جديد للمكتب، كانت تبرزها، وتطلب من القواربية التمعن فيها، لعلهم قابلوا أحدًا منهم!!